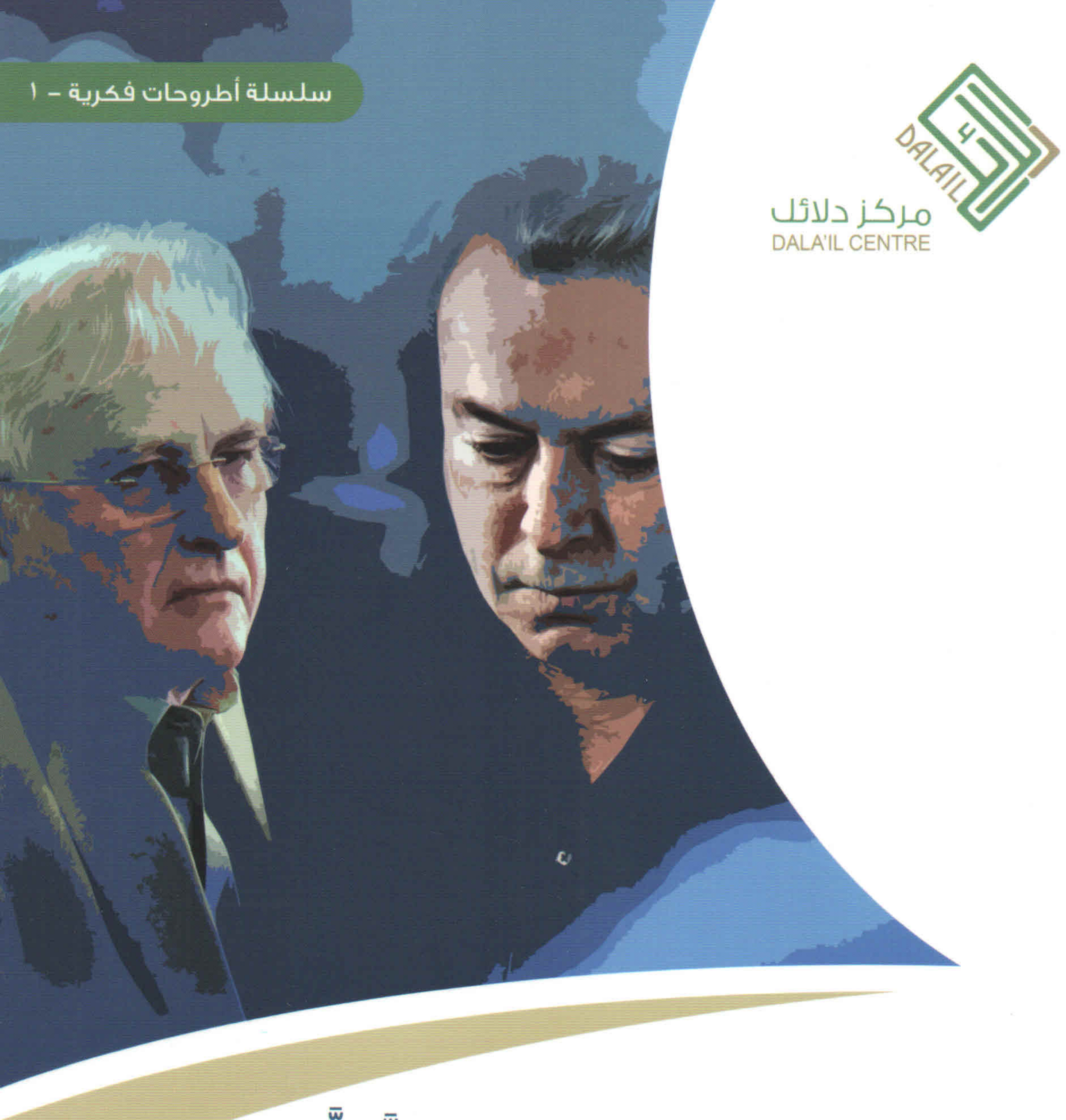


قَطيع القطط الضَّالّة

بين تناقضات دوكينز ومغالطات هيتشينز

سامي أحمد الزين

تقديم الشيخ الدكتور : محمد العوضي

الطبعة الثانية
" نسخة منقحة "

قطيع القطط الضالة

قطيع القطط الضالة

بين تناقضات دوكينز ومغالطات هيتشنز

سامي أحمد الزين

تقديم الشيخ الدكتور

محمد العوضي

ح مركز دلائل، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المؤلف: سامي أحمد الزين

قطيع القطط الضالة / المؤلف - الرياض، ١٤٣٧هـ

١٩٩ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٧-١-٠٤٧١-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- الإلحاد والملحدون

٢- العقيدة الإسلامية - دفع مطاعن أ. العنوان

ديوي ٢٤٩ رقم الإيداع ٣٢٩٠/ ١٤٣٧

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ



Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

طبعت في



تصدير:

كثيرةٌ هي العقول التي أفرزتها البشرية لتقود توجهات ملايين الناس لسنوات وسنوات، وسواءً أكانت تلك القيادة في الخير أم الشر إلا أن العاقل يسعىٰ للنظر في أيٍ منها وعرضه علىٰ أوليات الفكر القويم والرأي السديد ليرىٰ مدىٰ اتساقها مع العقل والفطرة ومدىٰ خلوها من التناقض في ذاتها من عدمه.

ولذلك: كانت الحاجة الماسة لمثل هذه السلسة من (أطروحات فكرية)...

وفي هذا الكتاب يتجول بنا أحد أصحاب الأقلام الواعدة الشابة أ. سامي الزين في تناقضات ومغالطات اثنين من رموز (الإلحاد الجديد) التي تصدرت الساحة الإعلامية العالمية في العقدين الأخيرين، مستخدمًا في تقييمهما أمام الناس وأتباعهما؛ نفس الأدوات التي استخدموها مع غيرهم!

مركز دلائل

***


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات:

المحتوى **الصفحة**

المحتوى	الصفحة

* * *

مقدمة...

كيف تستقبل أمنية شاب يستشيرك في تأليف كتاب يكشف فيه تناقضات أشهر ملحد في العالم وتلبيساته ومغالطاته؟!!

هذا ما حصل معي في الفندق الذي أقطن فيه بمدينة الرياض. حينما طلب زيارتي هاتفياً وشرفني الأستاذ سامي بلقائه.

وحاصل قصته أنه عكف زمناً علىٰ مشاهدة عشرات المقاطع المتلفزة من حوارات رأس الملحدين اليوم «ريتشارد دوكينز». حيث قارن بين إجاباته وتفسيراته وتحدياته وسخرياته، ثم قام بفرزها فذهل من حجم ما تحويه من ثغرات وتناقضات، ثم رجع بعد مقارنة المشاهدات وما يكتنفها من مفارقات بمقارنتها بما كتبه دوكينز ذاته في مؤلفاته؛ فازدادت قناعته بضرورة كشف الجانب العبثي المتمثل في نزعاته الفكرية والفلسفية والنفسية والاجتماعية والمنطقية والأخلاقية التي لا علاقة لها بتخصصه الأكاديمي البحت، وإنما بأهدافه الأيديولوجية ومواقفه التعصبية؛ بل وفي كثير من الأحيان بمزاجه الشخصي ومكاسبه المصلحية.

وعندها شجعته ووعدته أنه إذا انتهىٰ من كتابة ملاحظاته ونقده فإنني سأتشرف بتقديم الكتاب وتعريف الناس به، وها هو الكتاب بين يديّ وبعد

أن انتهيت من قراءته أدون هذه الإضاءات:

* استوقفني اهتمام شاب في باكورة عمله الثقافي لأطروحة يتناول فيها موضوعاً شائكاً بهذا المستوىٰ المعرفي.

فنِعمَ النموذج للجيل الجديد المنفتح علىٰ العالم بلا قيود ولا سدود في عالم الاتصالات عابرة القارات، لأنه نموذج استطاع أن يتخلص من وهج الانبهار بالأشخاص مهما كانت مكانتهم العلمية وحضورهم الإعلامي. بل تجاوز الانبهار إلىٰ كشف سقطات خصمه ودمغها بأنها متناقضة، وهي كذلك. ولأنه نموذج للجدية في البحث والتنقيب.

* أعجبني في بحثه دقة ملاحظته واكتشافه ما يغيب عن بعض أقرانه من شبابنا مثل:

- بيان الحيل التي يلجأ إليها الملاحدة في الدفاع باسم العلم والعقل عن قناعاتهم الإلحادية.

- التحليل الثاقب لشخصية هيتشينز المثيرة للجدل والمضطربة، وتناوله من أكثر من جانب بصورة لم يتم التطرق إليها كثيراً من قبل.

- اختيار الملاحدة للفرضيات البعيدة والهروب عن الحقائق الجلية بدافع التعصب ضد الدين مثل: (مفهوم العدم والأكوان المتعددة عند لورانس كراوس، والخلية الأولىٰ عند دوكينز،، وهذا ما أسميه «التفكير الرغبوي»).

- لاحظ انتقال الملاحدة من الإيمان إلىٰ الطعن بالأديان ثم التركيز علىٰ تجريح الإسلام.

- كشف جهل أشهر الملحدين الجدد بالإسلام، ريتشارد دوكينز وسام هاريس وكريستوفر هيتشينز ولورانس كراوس.

- من خلال نصوص الملاحدة وحواراتهم سلط المؤلف الأضواء على الجانب اللاعقلاني بل السطحي في ردود الملاحدة.

- أعطى الجانب النفسي، والمصالح الشخصية، والمكاسب المالية، وعلاقتها بالشهرة والاستعراض والاستفزاز؛ أعطاها حقها في صلتها بالعناد والإصرار على الباطل والسخرية من الحجج المعقولة والقفز على الموضوع. وهذا ما يغفل عنه الكثيرون، أعني أثر صدق الإرادة في البحث عن الحقيقة والتفاعل معها.

- روعة التوصيف الواقعي لسيكولوجية الملحدين من خلال التدرج المتسلسل في تبنيهم الإلحاد، وروى لنا تجربته الشخصية مع ردة فعلهم معه لمجرد أنه اعترض على مسألة واحدة فقط لأحد المعصومين عندهم!!

- لم ينس المؤلف الربوبيين الذين لا يعترفون بالأديان ولا الرسل وأن أكثرهم ملاحدة ولكن من طراز آخر.

- كشف الورطة الكبرى للملاحدة الكبار وأولهم دوكينز في فشلهم في البحث عن حل مادي أو دارويني تطوري لسؤال كيف نشأ العقل؟ ولماذا تميز به الإنسان، وساد الحياة والأحياء.

- تناول المؤلف بشيء من التوسع علاقة الإلحاد بالإبادات الجماعية للبشر والاستعباد والاستعمار والحروب العالمية الملحدة، وأيضًا تناول مصدر الأخلاق والموقف من الإباحية والشذوذ الجنسي وزنا المحارم

والبهائم! وفي كل موضع يطلعنا المؤلف على إجابات الملاحدة المصورة والتي جمعت بين اللغو والعبث والكبر والشطح والعداء لإنسانية الإنسان.

- لم يغفل المؤلف التعرض للأسئلة التقليدية كسؤال مَن خلق الله ومراهنة دوكينز عليه.

- وعجبت منه أنه خصص فصلا ربما هو الأطول عن نظرية التطور واحتاط لنفسه إذ تساءل كيف يبحث في موضوع علمي إنسان غير متخصص؟ هناك تجد الإجابة وهناك تجد أيضاً كيف يختلط العلم عند الملاحدة بالتخمينات والتفسيرات المتناقضة لذات الظاهرة، بل وابتكار الخرافة للخروج مما يضاد العقل والعلم!!

- وفي آخر الكتاب نجد تخصيصاً من الباحث للحديث عن معضلة الشر في الكون بين المؤمنين والجاحدين، ثم بحث مدى صدق الأديان وتعددها، وما يثيره الملحدون والمشككون حولها من شبهات.

وأخيرا فقد بين في مقدمة كتابه أن مناقشاته ليست مع عامة ملاحدة العرب فهم من النوع الذي لا ينفع معه منطق ولا يقنعه دليل للأسف، وإنما مع المتشككين الذين يبحثون عن مساعدة تخرجهم من دوامة الشك.

لقد استمتعت بالكتاب رغم ما لدي من ملحوظات وتعليقات توضيحية أو استدراكات، وهذا شأن طبيعي، إلا أني لم أتدخل في النص المكتوب، منتظراً تفاعل القراء بشتى اتجاهاتهم، وما يبدونه من آراء تثري الكتاب والكاتب والقراء، ليطور بحثه وتعم الفائدة.

د. محمد العوضي

هذا الكتاب...

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين وسيد المتقين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحابته أجمعين أما بعد..

فعلىٰ الرغم من أن مَن يتصدر مناقشة قضية الإيمان والإلحاد هم بغالبيتهم العظمىٰ من الفلاسفة والعلماء ورجال الدين وغيرهم من المتخصصين، إلا أن المتلقين المستهدفين من تلك الحوارات والكتابات والمناظرات عادة ما يكونون من العوام الذين كثيراً ما لا يملكون من العلم ما يؤهلهم للفصل في القضايا المختلف عليها، فلماذا علىٰ أية حال لا يقوم أحد المنتمين إلىٰ تلك الأغلبية بإضافة صوت آخر إلىٰ الساحة؟ صوت وإن بدا وجوده غريباً إلا أنه قد يكون ذا وقع مختلف علىٰ المتلقي العامي بحكم القرب والأسلوب المتسم بالبساطة الشديدة.

- إن هذا العمل البسيط والمتواضع ليس كتاباً علىٰ الطريقة التقليدية التي اعتاد عليها القارئ. إنه أشبه بالفقرات أو النقاط التي لا تتقيد كثيراً بتسلسل الموضوعات والفقرات ولا بالترابط بينها، ليس علىٰ الأقل بالشكل المتعارف عليه لدىٰ الكُتّاب، حيث الكثير من الفقرات التي يحتويها يمكن تغيير مواضعها أو حتىٰ حذفها دون أن يؤثر ذلك كثيراً علىٰ المُخرج النهائي.

وقد كان هدفي من تلك الطريقة في الكتابة هو أولاً وضع أكبر قدر من المعلومات والشواهد المتعلقة بالموضوع المذكور دون الحاجة إلىٰ كلمات وجمل وموضوعات إضافية لربط الفقرات بعضها ببعض. وثانياً كسر النمط التقليدي للكتب التي قد تكون مملة وطويلة بعض الشيء، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الفئة التي يستهدفها هذا العمل وهم معتادي الحوار عبر تويتر وهواة التثقف عبر مقاطع الفيديو القصيرة.

وهذه المقدمة بالمناسبة ليست مستثناة من تلك الطريقة كما هو واضح.

- لا يهدف هذا الكتاب إلىٰ مناقشة الإلحاد والملحدين بالشكل التقليدي العادي، إذ لا يبدو أن الأسلحة التقليدية تأتي بالنتائج المأمولة خصوصاً مع الملاحدة العرب، لذلك يحاول الكتاب ضرب أفكارهم وعباراتهم المكررة بالأسلحة غير التقليدية وذلك لتحقيق أمرين مهمين: أولهما أن نؤكد للملاحدة الذين يظنون وصولهم إلىٰ درجة اليقين من عدم وجود خالق لهذا الكون (وقليل مَن يجهر بذلك)؛ أن تركيبة عقولهم مختلفة بعض الشيء عن باقي البشر، وأنهم أقرب إلىٰ مَن قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(النمل: ١٤). فلا ينفع مع الواحد منهم منطق، ولا يقنعه دليل.

تحقيق الهدف الأول سيساعد كثيراً في بلوغ الهدف الثاني من هذا العمل والذي يعتبر الهدف الأهم والأكبر؛ ألا وهو مساعدة المتشككين علىٰ الخروج من دوامة الشك التي يرافقها خوف واضطراب في بعض الأحيان، وعدم مبالاة ونسيان في أحيان أخرىٰ.

* لا يميل كل من المؤمنين والملحدين إلىٰ الاطلاع علىٰ أعمال مَن يخالفونهم إلا فيما ندر؛ لذلك لا أحاول هنا تحقيق المستحيل المتمثل في إخراج الملحد من إلحاده، بل أركز كما أسلفت علىٰ مساعدة المتشكك الذي قد يستفيد من بعض التغيير في الطرح.

- إحدىٰ المشكلات الكبرىٰ التي يضطر كل مَن يناقش الملحدين إلىٰ مواجهتها هي أن كثيراً من الملحدين المنكرين لوجود الخالق إنكاراً كاملاً يخفون ذلك ويزعمون أنهم متشككون فقط لا أكثر. والسبب بالطبع هو أن تلك هي الطريقة الوحيدة للهروب من مأزق الإثبات: أنت واثق بنسبة مائة بالمائة من عدم وجود خالق؟ أثبت ذلك..

- سيلاحظ القارئ أنني لا أستدل بأقوال المتدينين. ذلك أن إقناع الملحد أو المتشكك في نظري لا يمكن أن يكون بطريقة: انظر إلىٰ أقوال كل هؤلاء العلماء والمفكرين: جميعهم يرون أن التدين أفضل من الإلحاد.. وذلك لأن رد الفعل التلقائي لعقل الملحد سيكون: إذا قال عشرة علماء متدينين هذا الكلام فأنا واثق من أن هناك المئات من العلماء الملحدين الذين قالوا كلاماً أفضل منه.. ثم ينسىٰ الأمر بأكمله.

هذا بالإضافة إلىٰ أن الاستدلال بأقوال المؤمنين يُعدّ تطويلاً لا جدوىٰ منه حسب رأيي إذا ما أخذنا في عين الاعتبار ما صدر ويصدر من قادة الإلحاد الجديد من عبارات تنضح بحقيقة ما في داخلهم، فأفكارهم ذاتها هي في الواقع أكثر من كافية لأن تحكم علىٰ نفسها بالموت إذا ما تم جمعها وترتيبها بالشكل الصحيح.

- أحاول بقدر المستطاع أن أتجنب الاصطدام المباشر مع الطرف الآخر دون سبب. ففي تقديري مثلاً؛ لا توجد فائدة من أن أقول للتطوريين إن الداروينية قد سقطت تماماً، وإن هناك الكثير والكثير من الأحافير التي تثبت صحة ما قلته، ثم أبدأ بسياقة الأدلة من وجهة نظر معارضي التطور، وذلك للسبب السابق نفسه أيضاً. حيث أرىٰ أن هناك زوايا أخرىٰ يمكن أن ننظر منها إلىٰ تلك القضايا التي أصبحت شائكة بسبب إصرار الطرفين علىٰ الصدام المباشر حول نقطة تكاد تكون جامدة.

- أحد أهم أسباب قوة الفكر الإلحادي في العالم الغربي اليوم يعود للديانة المسيحية ذاتها، فضعف حُججها وقصور إجاباتها النابع من تناقضها الداخلي يساعد الفكر الإلحادي هناك علىٰ التغول؛ ثم ادعاء احتكار العلم وكذلك ادعاء التفوق الفكري علىٰ كافة الأديان بما في ذلك الإسلام، وذلك عن طريق خدعة قديمة أساسها الهجوم علىٰ عقيدة التثليث أولاً ثم الاسترسال في الحديث عن الأخطاء التي تملأ كتب النصارىٰ واليهود مع ذكر الإسلام مرة أو مرتين فقط، غالباً عند الحديث عن القتال أو المرأة.

- حسب رؤيتي فإن القسم الأكبر من ملحدي الإنترنت العرب ليسوا ملاحدة علىٰ الإطلاق بل هم من النصارىٰ، ويمكن التحقق من ذلك وكشف زيفهم بسهولة. وهؤلاء يدّعون أنهم خرجوا من الإسلام إلىٰ الإلحاد حتىٰ يكونوا رباطاً معنويّاً - أو حتىٰ عاطفيّاً - مع المسلم المتشكك الذي عادة ما يكون أكثر قابلية للتأثر بكلام مَن مرّ بتجربته نفسها من بني دينه أو جلدته. وهؤلاء مضيعة للوقت إن لم يكونوا مضيعة للطريق.

- يركز هذا العمل كثيراً علىٰ كتب ومناظرات ومقابلات وأقوال شخصية بعينها؛ وهي شخصية مَن يوصف اليوم بأنه أشهر ملحد في العالم.. عالم الأحياء التطوري البريطاني البروفيسور **ريتشارد دوكنز** (Richard Dawkins).

فبالإضافة إلىٰ كونه يوصف بأنه أشهر ملحد في العالم كما أسلفت، فإن كثيراً من عوام الملاحدة الغربيين لا يختلفون معه إذا تكلم في مسألة، ويكاد ملاحدة العرب يُجمعون علىٰ الإيمان المطلق به. والواقع أنه يُعتبر وإلىٰ حد كبير الأثقل وزناً بين المتكلمين باسم الإلحاد في العالم اليوم بسبب تخصصه ومكانته في أوكسفورد، وكذلك بسبب صفاته الشخصية وطابعه الهجومي. بالإضافة طبعاً إلىٰ التركيز الإعلامي عليه.

* يوجد في العالم الغربي أصوات أخرىٰ كثيرة تدعو للإلحاد الصريح، من أشهرها الصحفي البريطاني الراحل **كريستوفر هيتشينز** (Christopher Hitchens) صاحب كتاب (الإله ليس عظيماً)، وكذلك صديق **دوكنز** الفيزيائي الأمريكي **لورانس كراوس** (Lawrence M. Krauss)، وهناك أيضاً الفيلسوف وعالِم الأعصاب الأمريكي **سام هاريس** (Sam Harris) صاحب كتاب (نهاية الإيمان)؛ وهذا الأخير من أكثر الملاحدة الغربيين المشهورين تركيزاً علىٰ الإسلام.

لكن مَن يُلقي نظرة خاطفة علىٰ أرقام مبيعات كتب هؤلاء ويقارنها بمبيعات كتاب "وهم الإله" الذي ألّفه **ريتشارد دوكنز**، سيعرف مباشرة فارق الشهرة والتأثير اللذين يتفوق بهما دوكنز علىٰ أي ملحد آخر اليوم.

- إن القصد من هذا الكتاب ليس تصيد أخطاء الملحدين، ولو كان

كذلك لما كان بهذا الحجم الصغير، إنما هو يهاجم أفكاراً منظمة قد تم نشرها والتصريح بها أمام العامة مراراً وتكراراً، أي إنه يهاجم القناعة الفعلية للمتكلم الملحد وليس زلة غير مقصودة.

– إن ما تطلّبه تنفيذ هذا العمل لم يكن أكثر من جهاز حاسوب موصول بشبكة الإنترنت. وذلك يعني أن الوصول إلىٰ المواد المشار إليها فيه لمَن أراد التحقق من دقتها ليس بالأمر الصعب ولا المكلف.. كما أن ذلك يعطي – كما آمل – حافزاً لمَن كانت لديه القدرة علىٰ إضافة شيء في هذا المجال، أو علىٰ الأقل نشر الردود علىٰ أباطيل الإلحاد التي أخذت تنتشر بشكل مطرد في بعض الدول المسلمة وفي شمال أفريقيا خاصة بسبب الظروف السياسية المضطربة في هذه الفترة. ولأننا قصّرنا في الماضي في وأد الفكر الإلحادي الجديد في موطنه الأصلي (الدول الغربية) فلم يكن مفاجئاً رغم ضعفه الشديد أن يدخل ديارنا ويسمم أفكار بعض إخوتنا وأبنائنا. وأظن أنه قد آن الأوان لكل ذلك أن يتغير.

* لعلي لا أبالغ في الطمع إن قلت إن الأمل معقود بدرجة كبيرة علىٰ مَن أصيبوا بداء الشك ثم خرجوا منه في القضاء علىٰ ما تبقىٰ من معاقل الإلحاد بعد أن عرف هؤلاء نقاط ضعف خصومهم الحقيقيين. وأنا أعقد عليهم الأمل من باب أن شعوب المنطقة بشكل عام لا تكاد تعترف بالقراءة وبالاطلاع، وهو ما يعطي المتشكك السابق دوراً أكبر في حسم القضية ليس في المشرق فقط؛ فالإلحاد الغربي أيضاً ينتظر مَن ينهيه.

– إن الرد علىٰ الشبهات التي يلقيها الملاحدة هنا وهناك ليس بالأمر

العسير، ولكن من المهم جدّاً أن يفهـم المتشكك عند انتهائه مـن قـراءة هـذا الكتاب أنه ليس من المنطقي أبداً أن يبقـىٰ تحـت عبـاءة الـشك والإلحـاد بعـد كل ما قرأه وعلمه لمجرد أنـه بقيـت لديـه شبهة أو سـؤال لـم يجـد حولـه مَـن يجيبـه عليهـا. بـل عليـه أن يفـرّق جيـداً بـين الـضربات القاضـية التـي يمكـن توجيهها للإلحاد الجديد بصفة خاصة، وبين الشبهات المهترئة التي يمكن أن يلقيها ذلك الفكر المطاطي المتقلب قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- كثيراً ما تشير الحقائق العلمية والتاريخية وغيرهـا إلـىٰ شـيء معـين ثـم تأتي آراء معظـم النـاس مخالفـة لتلـك الحقـائق. ولـو نظرنـا إلـىٰ فعـل مـشاهير الملاحدة اليوم لوجدنا أن رهانهم بكامله هو علىٰ تلك النقطة بالذات. [**كيـف يمكن عـرض الأدلـة العلميـة وترتيـب الحقـائق التاريخيـة بـشكل يجعـل مـن الإلحاد خيراً محضـاً؛ فيما يجعل ما تأتي بـه الأديـان بـاطلاً ولـو كـان حقّـاً**].. هناك سوابق تاريخيـة وشـواهد تـدل علـىٰ أن إقنـاع النـاس بـذلك لا يُعـد أمـراً مـستحيلاً.. وسـيهدف هـذا العمـل بـإذن الله مـن ضـمن مـا يهـدف إلـىٰ كـشف بعض الحيل المـستخدمة في ذلـك، عـسىٰ أن يكـون في ذلـك نفـع وفائـدة لمَـن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

سامي الزين

***

المشكلة في الأدلة أم في أحد الطرفين؟

لو تخيلنا شخصين يسيران إلىٰ وجهة ما وتوجب عليهما اختيار أحد جانبي طريق وعر - وادٍ مثلاً - كمسار للرحلة، فإن الأمر يكون سهلاً بداية؛ إما يمين الوادي أو يساره إلىٰ أن تنتهي الرحلة.

أما لو عبر أحدهما إلىٰ الجانب الآخر من الوادي ثم صاح في صاحبه: تعال إلىٰ هذا الجانب لأن الرطوبة مرتفعة في ذلك المكان وأرجّح أن سبب ذلك يعود إلىٰ أمطار هطلت في الماضي القريب مما قد يتسبب في انزلاقات طينية أو صخرية من المرتفعات علىٰ ذلك الجانب لذا أعتقد أن هذا الجانب أكثر أمناً.. لو حدث ذلك: فإن هذا الأمر البسيط ابتداءً سيتطور إلىٰ أن يصبح أصلاً لا يمكن رفضه إلّا بشيء أقوىٰ من: السلامة تأتي أولاً + الأمر لا يتطلب سوىٰ القليل من الجهد والوقت الإضافيين.

لكن ماذا لو أن المترافقين في المسير هم مجموعة أشخاص بينهم بعض التنافس وقد يكون لدىٰ أفراد معينين منهم حب الظهور والسلطة؟

هذا هو بالضبط شأن الأديان مع الإلحاد اليوم، وكذلك شأن الأديان بعضها مع بعض لكن مع اختلاف بسيط، وهو أن المسألة بين المؤمنين والملاحدة وصلت إلىٰ الحد الذي قال فيه أحد الجانبين للآخر: اعبر أيها

الجاهل الأحمق!

بذلك أصبح وبشكل رسمي معظم مَن علىٰ الجانبين يفضل الموت علىٰ أن يعترف بخطئه أمام الآخر، وأخذ كلّ طرف يزن الأدلة والبراهين بميزان خاص أعدّه لذلك الغرض. ميزان يقوم تلقائيّاً بمضاعفة حجم ووزن الأدلة التي تدعم قوله إلىٰ درجة يمكن معها لشبهة بحجم حبة رمل أن ترجح بأطنان من الأدلة الآتية من الجانب الآخر.

ذلك هو العمق الحقيقي للخلاف بين الطرفين. وهي حقيقة مرّة علىٰ أتباع الأديان لأن الواقع يثبت أن الواحد منهم قد يتعصّب لكل ما أتىٰ به دينه ولو أثبت العلم والمنطق مخالفته للحقيقة. أما بالنسبة للملحدين فليست تلك الحقيقة مُرّة فحسب بل هي بمثابة تجرع السّم! والسبب؟ هو أن الملحد وحده ولا أحد سواه يدّعي التجرد التام من جميع القيود والنظر في الأدلة العلمية والمنطقية فقط. الملحد وحده هو مَن يدّعي أنه يقف علىٰ مسافة واحدة من جميع المعتقدات ولا يقترب إلا مما يثبته العلم والمنطق بأدلة واضحة. الملحد هو مَن يعيب علىٰ أتباع الأديان أنهم يدينون فقط بما ولدوا ونشؤوا عليه، بينما اختار هو معتقده بإرادة كاملة، ويدّعي بذلك أنه الوحيد القادر علىٰ التفكير الحر بكل معاني ومتطلبات الكلمة.

* يبدو كلام الملحدين هذا منطقيّاً في ظاهره، ولكن توجد طرق كثيرة لاختبار صحة مثل ذلك الادعاء. فمثلاً: يعتمد الملاحدة والمتشككون اليوم علىٰ نظرية التطور الداروينية كأساس لما ذهبوا إليه من (شِبه) نفي لوجود الخالق. ويعتمدون كذلك معها علىٰ النظريات الأخرىٰ التي بنيت عليها في

شتىٰ العلوم: فلك، جيولوجيا، اجتماع، علم نفس.. إلخ. لذلك يزعمون أن العلم الحديث يؤيد فكرة عدم وجود الخالق.

إذاً: علىٰ ماذا اعتمد مثلاً الزنادقة الملاحدة (أو الدهريين) الذين عاصروا الإمام أبا حنيفة النعمان ﷫ في إلحادهم؟ حيث يقرأ الملحدون اليوم قصص الإمام ﷫ ومناظراته مع منكري وجود الخالق ويقولون إن حُججه غير مقنعة بالنسبة إليهم، وهو تعامٍ واضح منهم عن الحقيقة وخداع للنفس بغرض إخفاء النقطة الأساسية ولب القضية: لو صح ادعاؤهم بأن العلم هو ما قادهم إلىٰ الإلحاد فما الأدلة التي أقنعت إخوانهم الذين سبقوهم في ذلك العصر المتقدم جدّاً (القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي)؟ هل ألحدوا بدون أعمال داروين وجاليليو وفولتير وكوبرنيكوس وبرونو ونيتشه وبرتراند راسل وفرويد وسبينوزا والآخرين؟ كيف ألحدوا ولماذا؟

هل صحيح أن الوصول إلىٰ الإلحاد لا يكون إلا باستخدام العلم والمنطق؟ ماذا عن الملحد الذي يعترف أن سوء معاملة أحد المتدينين له هو ما جعله ملحداً؟ أو الملحد الذي يصرّح أنه لم يركّز كثيراً علىٰ مسألة الأدلة وأنه اتخذ القرار بناء علىٰ ما مالت إليه نفسه لا عقله، قائلاً بأن الحياة بلا أي قيد هي ما كل ما يريده ولا تهمه العواقب؟ كل ذلك يثبت بشكل قطعي أن ليس كل الملحدين مهتمين بالدليل العلمي أو المنطقي.

* أتساءل بدافع الفضول فقط عن طبيعة العلاقة بين ملحدي الفئة (أ) مع ملحدي الفئة (ب). فهل يحاول الملحد (الحقيقي) أن يجعل الملحد (غير الجاد) يرىٰ الكون بـ (الجمال) الذي يراه هو به؟ أم أن مجرد خروج

المؤمن من دينه إلىٰ الإلحاد كافٍ بالنسبة له؟ ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ (النساء: ٨٩).

- يعتقد الملحد أن ميله الدائم نحو الفرضيات العلمية والفلسفية التي ترجح عدم وجود خالق للكون هو مجرد ميل نحو الحقيقة، ولا يهمه إن جاءت الحقيقة علىٰ عكس ما عاش عليه حياته السابقة وعلىٰ غير ما يريد أن يعيش عليه حياته الباقية، أي الإلحاد. من المثير للاهتمام أن لا يرىٰ الملحد سبباً خفيّاً في أن الملاحدة يجتمعون دائماً - وبالمصادفة - علىٰ الميل إلىٰ تصديق تلك الفرضيات التي كثيراً ما تكون ضعيفة أو حتىٰ معدومة الأدلة، كفرضية الأكوان المتعددة علىٰ سبيل المثال.

- يحلو للملحدين التظاهر أن ليس في الإلحاد إلا الأمور العلمية والعقلية ويتعمّدون إخفاء الجوانب الأخرىٰ. ولا أبالغ إن قلت أن الغالبية العظمىٰ من الملحدين العرب لا يجذبهم شيء إلىٰ الإلحاد بقدر فكرة التحرر المطلق والتمرد علىٰ أعلىٰ سلطة في الكون. ويتضح هذا الأمر بجلاء في مواقعهم ومنتدياتهم التي يكتبون فيها (أو بالأصح ينسخون ويلصقون) مع شعور غامر بالذكاء والدهاء، وبتباهٍ واضح بخداع أقرب الأقربين إليهم. فأهلوهم - كما يتوهمون - ما يزالون منغمسين في عبادة ذلك الإله الوهمي، فيما وصلوا هم إلىٰ الحقيقة الكبرىٰ وصاروا يسخرون ممَن حولهم بعد ذلك.

الحقيقة أن أمر هؤلاء أقرب إلىٰ قوله ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ

أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ٨ -١٦).

- لو قيل لملحد ما إنه ظهر دليل علمي في تشريح كائن حي معين يثبت أن الكائنات الحية لا يمكن أن تكون نتاجاً للتطور الأعمىٰ وحده. وأقول مجدداً الدليل (يثبت) ذلك؛ فهل نقول من معرفتنا للملحدين إن رد فعل الملحد سيكون تسليماً تامّاً وقبولاً بذلك الدليل؟ أم أنه سيدخل بالحوار إلىٰ نفق لا نهاية له ويبدأ بالحديث عن ملايين الأدلة الأخرىٰ التي أثبتت أن التطور صحيح - بالطريقة التي يفهمها هو - وأن العلم لم يتوقف وينتهِ عند ذلك الاكتشاف الأخير؟

هذه الإشكالية بالذات هي ما يحوّل النقاش بين المسلمين والملحدين إلىٰ حوار طرشان إن صحت العبارة. فكلما تكلم أحد الطرفين عن دليل علمي يثبت قضية ما، فسيقول الآخر - ولو في نفسه -: لنا علماؤنا ولكم علماؤكم ولو قال عالم مؤمن بهذا فإن هناك الكثير من العلماء الملحدين الذين يقولون بغير ذلك، ثم ينتهي الأمر.

- اطلب من أحد الملحدين أن يحكي لك عن بداية قصته مع الإلحاد. ثم انتبه إلىٰ العبارات التي يستخدمها في وصف الأحداث التي مرّ بها أو الأفعال التي قام بها:

بدأت أستخدم عقلي في سن مبكرة فأخذت أفكر في كل شيء وأعمِل عقلي في ما تمّ تلقيني أنه الصواب، أستاذي لم يُجب علىٰ أسئلتي ووصفني بكذا وكذا [العقل المتميز].. أصبت بالاكتئاب واليأس في بداية تركي للدين لكن ذلك لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما بدأت أرىٰ الحياة بمنظور مختلف [صراع العواطف مع العقل ثم انتصار العقل علىٰ عكس المُراد والمتوقع].. بعد فترة أيقنت أن الحياة أجمل كثيراً هكذا [مع الوقت..الإلحاد طمأنينة].. بعد ذلك ومع كثرة القراءة والاطلاع تيقنت أكثر فأكثر أن الإلحاد هو الحقيقة التي لا جدال فيها [العلم يدعم الإلحاد دائمـًا وأبداً].. والآن أحاول أن أنقل تجربتي إلىٰ مَن يمر بالتجربة نفسها أو يريد معرفة الحقيقة من شركاء الإنسانية [من باب الأمانة وأحبّ لأخيك ما تحب لنفسك]. مؤثر جدّاً أليس كذلك؟

مشكلة المشكلات

إن الإجابة علىٰ السؤالين الأبديين؛ وجود الخالق والدين الحق سهلة وقصيرة. لكن المشكلة الكبرىٰ تكمن في ما يجلبه المحاور معه إلىٰ طاولة النقاش. فإذا ما جلس إنسان مسلم وآخر ملحد وثالث مسيحي ورابع ربوبي وخامس هندوسي...؛ أتوا جميعـًا لمناقشة معتقداتهم، فإن كلًّا منهم يأتي إلىٰ طاولة الحوار واضعـًا كتابه المقدس أمامه، والخطأ الفادح الذي لطالما وقع

فيه الملاحدة دون غيرهم هو تصورهم أنهم يجلسون إلىٰ تلك الطاولة وأيديهم خاوية؛ ذلك لأنهم - حسب ظنهم - ليس لديهم كتاب مقدس ولا نصوص دينية وأن إيمانهم الكامل هو بالعلم وحده وأنهم علىٰ أتم الاستعداد لتغيير آرائهم إذا ما أثبت العلم خطأهم. وذلك خطأ فادح ومتعمّد.

في الأصل و كمبدأ معروف؛ إذا تعارض العلم والمنطق بشكل صريح وواضح مع ما يعتقده الإنسان فإنه يتوجب عليه أن يغير معتقده مباشرة وعلىٰ الفور. لكن المشكلة دائماً وأبداً هي في الأمور التي تتعلق بذلك المعتقد، أو لنقل في مقتضيات ترك ذلك الإيمان.

* كثيراً ما نسمع رجال الدين من النصارىٰ في الغرب يضطرون في مناظراتهم إلىٰ استخدام عبارة: نحن لا نؤمن بالكتاب المقدس بشكل حرفي؛ وذلك حينما يتعارض كتابهم بشكل واضح مع العلم أو المنطق. وهو ما فعله (علىٰ سبيل المثال لا الحصر بالطبع) **روان ويليامز (Rowan Williams)** كبير أساقفة كنيسة كانتبري السابق في مناظرته مع **ريتشارد دوكنز** في جامعة أوكسفورد[1]. حين قال **ويليامز** إنه لا يعتقد أن كتبة الأناجيل كانوا ملهمين [مؤهلين] للقيام بفيزياء القرن الحادي والعشرين!

الحقيقة أن عبارة مثل هذه تعني: يوجد في الكتاب المقدس أخطاء علمية [في الفيزياء] ولكننا علىٰ الرغم من ذلك سنبقىٰ مؤمنين أنه كتاب من عند الله الذي خلق الكون. وذلك ما حمل **دوكنز** للإجهاز عليه بالسؤال:

---

(1) Richard Dawkins and Rowan Williams debate.
https://www.youtube.com/watch?v=HWN4cfh1Fac

«لماذا قد تريد أن تضيع وقتك في إعادة تفسير سفر التكوين حتىٰ تجعله يتوافق مع علم القرن الحادي والعشرين؟ لم لا تلزم فقط علم القرن الحادي والعشرين؟». وقد حدث أمر مماثل في مناظرة دوكنز مع الحاخام جوناثان ساكس (Jonathan Sacks)[1] الذي دفعته المعضلات الموجودة في التوراة إلىٰ أن يقول إن من الهرطقة أن يأخذ الإنسان التوراة بشكل حرفي!

لا شك أن ذلك يعد بمثابة الضربة القاضية في أي مناظرة. ففكرة المناظرة أصلاً هي استخدام العقل والمنطق في معاينة الأدلة والمعطيات للوصول إلىٰ حقيقة معينة. لذلك فإن الشخص الذي يقول: ليس لدي دليل علىٰ صحة معتقدي ولكنني لن أعتقد بغيره مهما حصل: لا ينبغي له أن يكون علىٰ طاولة الحوار أصلاً. كذلك لو ثبت خطأ شخص ما واستمر في الكلام دون اكتراث يصبح الأمر مجرد مضيعة للوقت.

* إن ما أود إثباته من الكلام السابق واللاحق هو أن مسألة وجود إله خالق للكون في أصلها هي مسألة عقلية منطقية يمكن اختبار الأدلة التي تدعمها أو تضعفها بسهولة، شأنها شأن الكثير من القضايا الأخرىٰ. لكن المشكلة الأزلية في هذه القضية بالذات والقضايا المشابهة في المجمل تكمن في مقتضيات وتبعات الإجابة التي قد يصل إليها المرء، فمثلاً مَن يكسب المال الوفير من وقوفه إلىٰ أحد جانبي تلك القضية لا يُتوقع منه الحياد المطلق مثله مثل مَن لا ناقة له في الأمر ولا جمل.

---

(1) **Jonathan Sacks** and **Richard Dawkins** at BBC RE:Think festival. https://www.youtube.com/watch?v=bK0tpvcIRhU

المشكلة تتجلى

- قد يقول ملحد ما إنه في حال ظهور دليل علمي يدحض التطورية الداروينية فإنه لا خيار أمام العلماء وغير العلماء إلا أن يتقبلوا ذلك. وهذا صحيح من حيث المبدأ فقط، أما في الواقع فهناك حيل كثيرة يمكن استخدامها. لست الآن بصدد مناقشة الداروينية ذاتها؛ إذ إنني خصصت لها فصلاً كاملاً، ولكن ما يهمني هنا هو تأكيد أن الناس مؤمنين كانوا أم ملحدين لا يتخلون عن معتقداتهم ببساطة، وذلك لأن المعتقدات ليست أموراً سطحية يخمن فيها الإنسان مجرد تخمين ويكون مستعداً للتخلي عنه حينما يأتيه الخبر اليقين. بل هي قواعد يراها كحقائق لا يُنازع عليها ومن ثم يبني علاقته بالكون من حوله علىٰ تلك الأسس. لذلك لا أرىٰ مبالغة في أن أقول إنه بمجرد أن يقول لك إنسان إنه علىٰ استعداد لأن يغيّر بلمح البصر معتقده الذي يؤمن بصحته، عليك أن تبحث إن كان ذلك الشخص يكذب علىٰ نفسه أم عليك أنت.

- **ريتشارد دوكنز** هو عالم أحياء و بروفيسور [لديه زمالة فخرية حاليا] في جامعة أوكسفورد يؤمن بالتطورية الداروينية إيماناً كاملاً، وهو يؤكد أن سبب اقتناعه بها هو قوة الأدلة العلمية الداعمة لها فقط لا أكثر. كتب عدة كتب أهمها: (الجين الأناني) في سبعينيات القرن الماضي، و(صانع الساعات الأعمىٰ) بعد ذلك بقرابة العشر السنوات، وأخيراً (وهم الإله) في العام ٢٠٠٦ م. له الكثير من المحاضرات والمناظرات في محاولة إثبات أن الكون أوجد نفسه بنفسه دون خالق وأن الحياة بدأت بالمصادفة المحضة ثم بدأت

الداروينية عملها بعد تلك المصادفة الهائلة كما يقول هو عنها.

في كتبه ومحاضراته يشرح الحياة وتطور الكائنات بأنه ارتقاء بطيء ولكن مطرد، تدريجي ولكن فعال.. بل إنه يشرح كل شيء في هذا العالم تقريباً علىٰ ذلك الأساس. ويظهر كل ذلك بجلاء وشيء من التفصيل في كتاب "وهم الإله" الذي يمجّد فيه معلمه الأول تشارلز داروين **(Charles Darwin)** كثيراً حيث يعيد إليه الفضل في (رفع درجة الوعي لديه) بأن جعله يرىٰ أن الأشياء المعقدة جداً والتي (تبدو) مصممة يمكن أن تكون نتاجاً لعملية ميكانيكية شديدة البطء والفعالية في آنٍ واحد.

وقد استخدم دوكنز والتطوريون ذلك "الوعي" في كافة المجالات. ومن ذلك استخدامهم أسس الداروينية في شرح: ميل البشر لعمل الخير، ميل البشر للتدين، ثم استخدامها في شرح كيفية نشوء الكون نفسه.

كما لا ننسىٰ أصل التطورية الداروينية الذي هو التطور البيولوجي والذي يعلق ريتشارد دوكنز عليه بقوله: **الأجسام الحية اليوم هي كما نتوقع تماماً أن تكون عليه الكائنات المتطورة. بل إن كل عضو فيها يكاد يحكي حكاية تطوره بوضوح.**

هذا العالِم الأوروبي الذي يعمل أستاذاً في أفضل جامعة في القرنين العشرين والحادي والعشرين؛ يؤمن أن نظرية ما بإمكانها أن تشرح تقريباً كل شيء في هذا الكون وبشكل لا يتطلب وجود إله خالق، بل ويعتقد أنه من الخيانة للداروينية بشكل خاص وللعلم بشكل عام أن يحاول أحد قول إن الخالق هو مَن يقوم بالتغيير في خلقة وأشكال الكائنات علىٰ مر العصور..

السؤال الذي يجب طرحه بعد معرفة ما سبق هو الآتي: هل هو مقنع ما يدعيه ريتشارد دوكنز أنه في حال ظهور دليل علىٰ خطأ الداروينية فإنه سيرمي بها خلف ظهره مباشرة وبدون أي تردد؟ هل يؤمن دوكنز الآن بأن البشر باتوا علىٰ ما هم عليه اليوم بسبب نشأتهم من خلية أحادية ثم تطورهم، وأن الداروينية تشرح واقعهم الجسماني والعقلاني باقتدار منقطع النظير، ثم ما أن يظهر دليل يسقط النظرية البيولوجية يُسقط دوكنز النظرية بأكملها وكل ما يتعلق بها؟ هل يغير - وبشكل حرفي - نظرته للعالم وربما الكون بأكمله بتلك البساطة؟

* يحلو للملحدين بمَن فيهم دوكنز بطبيعة الحال أن يجيبوا علىٰ الأسئلة السابقة بنعم ثم ينسون المسألة. وأنا أدعو مَن يفعل ذلك من الملاحدة إلىٰ تذكر هذا الموقف في المرة المقبلة التي يتهمون فيها أحد المتدينين بعدم العقلانية وبالتحيز الأعمىٰ.

هل يظن الملحد أنه لو أثبتنا لدوكنز مثلاً أن محمداً ﷺ هو رسول من عند الله أن دوكنز سيصبح مسلماً ويتبرأ من معظم ما يقول به اليوم، ويتخلىٰ عن كل الأموال التي تدرّها عليه كتبه ومحاضراته ومقابلاته التي ترتكز علىٰ الهجوم والدعاية ضد الأديان؟ مرة أخرىٰ، الإجابة بنعم تنطوي علىٰ مغالطتين لا يمكن الإكمال بعد الوقوع فيهما. الأولىٰ: هي القول بسهولة التخلي عن كل شيء (لا سيما المال والشهرة والسلطة) في سبيل إعلان الحقيقة والقول إنه ليس من سبيل آخر سوىٰ الاعتراف إذا ما ظهرت الحقيقة مخالفة. والواقع هو أنه يمكن المماطلة والمخادعة إلىٰ الأبد. ولن يختلف

معي ملحد واحد حينما أقول إن عمر كوكب الأرض المشار إليه في العهد القديم هو خطأ لا يمكن تبريره ولا تفسيره. ولكن الواقع القائم هو أن من اليهود والنصارىٰ اليوم مَن تعدّىٰ مرحلة تأويل النصوص المقدسة وتغيير مدلولاتها ووصل إلىٰ التشكيك في الوسائل العلمية المستخدمة في قياس عمر الأرض بعد أن فشل في التأويل بما لا يتعارض مع العلم. وطبعاً غرور الملحد سيسبقه هنا إلىٰ أن يقول إن ذلك التزمّت هو من شيم المؤمنين فقط أما الملحدون فلا يهتمون بأي شيء سوىٰ الدليل العلمي.. وهو ما يوصلنا إلىٰ المغالطة الثانية الأكثر وضوحاً.

المغالطة الثانية هي أن من الملحدين العلماء - ناهيك عن العوام - مَن يعلن صراحة أن الداروينية أتت لتبقىٰ. وأنه سيظل مؤمناً بها ولو أسقطها العلم! ومن المعروف أيضاً أن من علماء التطوريين مَن لم يتورع عن تزييف الأدلة العلمية التي تثبت صحة مزاعمه. صحيح أنه في حال ثبات صحة الداروينية فإن عمل أولئك المُخربين لا يغير شيئاً من صحتها؛ لكنه يثبت وبلا أدنىٰ شك كذب الادعاء القائل بأن الملحدين جميعهم لا يهمهم شيء سوىٰ الحقيقة ولا شيء غيرها.

- يصرح كثير من ملحدي العرب علىٰ الإنترنت أن شخصاً ما - علىٰ الأغلب متدين - كان هو المتسبب في كراهيتهم للدين ونفورهم منه.. فلا أدلة هنا ولا نقاش ولا حوار.. كرهوا الدين فقط بسبب فلان. انتهىٰ

- يعترف كل ملاحدة العرب تقريباً بـ (حق) إسرائيل في الوجود، وبما أن ادعاء الصهاينة هو ادعاء قائم علىٰ أساس ديني صرف؛ فإنه يقسم أولئك

الملاحدة إلى قسمين: الأول آلى على نفسه العداء والمخالفة لما هو سائد في مجتمعه أيّاً كان ذلك السائد.. أما القسم الثاني فهو حقيقة بذلك الغباء وتلك السذاجة ولا سبب غير ذلك!

طريق هيتشنز

كريستوفر هيتشنز هو صحفي بريطاني (متأمرك) هاجر إلى الولايات المتحدة وحصل على جنسيتها وصار يدافع عنها بالباطل أكثر من الحق. مات في عام ٢٠١١م بسرطان المريء في مدينة هيوستن بولاية تكساس الأمريكية. كانت والدته قد ماتت منتحرة مع عشيقها في سبعينيات القرن الماضي مما أثر عليه كثيراً. له مناظرات مع أخيه بيتر المحافظ. كان معروفاً عن **كريستوفر هيتشينز** أسلوبه الشرس جدّاً في الهجوم على مخالفيه. وكان يعد داعية الإلحاد الثاني في العالم منذ مطلع القرن الحالي بعد **ريتشارد دوكنز**. كان في الثمانينيات والتسعينيات يعتاش من مذهب خالِف تُعرف. وقد كان يفعل ذلك بإثارة الجدل عن طريق مهاجمة الشخصيات التي يحبها ويقدرها عامة الناس. وما أن وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر حتى وجد ضالته الكبرى وهدفه الأثمن.. وهو الدين طبعاً. وقد شارك **هتشنز** في الكثير من المناظرات والمناقشات والبرامج التلفزيونية بالإضافة إلى كتابته عدداً من الكتب (حوالي ١٢)، أكثرها مبيعاً وأشهرها (الإله ليس عظيماً) والذي طبع في العام ٢٠٠٧م. بالإضافة بالطبع إلى مقالاته الصحفية في المجلات التي عمل بها.

- كان **هيتشنز** شخصية استعراضية أكثر من أي شيء آخر. وكان يطرب لتصفيق الحاضرين له ودائمـًا ما كان يعلّق علىٰ التصفيق إن لم يكن في مصلحته. اعترف مرة أنه ليس دائمـًا بعيداً عن إلقاء العبارات والتعليقات بغرض الحصول علىٰ بعض الضحكات والتصفيقات الرخيصة قائلاً: **إن الكل قد فعل ذلك في وقت ما!** كثرة تعليقه علىٰ تصفيق الجماهير دفعت جون ستيوارت (**Jon Stewart**) مقدم برنامج العرض اليومي (**the daily show**) ذات مرة إلىٰ أن يختم إحدىٰ مقابلاته معه بعبارة: **كنت قد طلبت ذلك وقد اكتسبته واستحققته.. صفقوا لكريستوفر هيتشنز!**[1].

* كان **هيتشنز** قد وصل إلىٰ درجة الجنون أكثر من مرة بسبب تصفيق الجماهير في حلقة من برنامج (**Real Time with Bill Maher**) للملحد الأمريكي الساخر **بيل ماهر**[2]. فحينما كان **هيتشنز** يهاجم الرئيس الإيراني مدافعـًا عن إسرائيل والولايات المتحدة قال إن الرئيس الإيراني هو مَن يبحث عن حرب عالمية ثالثة ثم أضاف أنه يؤمن بخرافات منها عودة المسيح المخلص [المهدي].. هنا قاطعه **بيل ماهر** مباشرة بقوله: **بذلك يؤمن جورج بوش أيضـًا بالمناسبة.** طبعـًا انفجر المكان بالضحك والتصفيق وما أن انتهىٰ الجمهور من ذلك حتىٰ بدأ **هيتشنز** يشن هجومـًا مسعوراً عليهم. قال: «**إن من التفاهة أن يصفق جمهورك علىٰ أي كلمة تقال**».. وحينما رد الجمهور بأصوات الاستهجان أخذ هتشنز يسبّهم علانية وبألفاظ وإشارات نابية! بعد

(1) https://www.youtube.com/watch?v=gI3g3z36y8Q

(2) https://www.youtube.com/watch?v=HECl4QK_mXA

ذلك عاد هيتشنز مرة أخرىٰ للتشكي للمقدم قائلاً إن الكل يستطيع أن يسخر من غباء جورج بوش الابن وإنه - هيتشنز - حضر برنامج جون ستيوارت ورأىٰ بيل ماهر نفسه يؤدي خمس نكات حول غباء بوش كل ليلة، وما يعتقده هيتشنز هو أن تلك هي نوعية النكات التي تُضحك الحمقىٰ والأغبياء. ذلك لأن الواحد من أولئك الذين يصدرون أصوات الاستهجان بين الجمهور يعتقد أنه يستطيع أن يبرهن أنه أذكىٰ من الرئيس. ومرة أخرىٰ رد الجمهور بالاستهجان فرد هيتشنز ثانية بالسباب والحركات النابية قائلاً أن لا أحد منهم أذكىٰ من الرئيس!

- شارك هيتشنز في برنامج الإذاعة المسيحي الأمريكي (**Wreched radio**) في أبريل عام ٢٠٠٩م[١]. والحقيقة أن معرفتي بتلك المقابلة كانت عن طريق الملحدة الأمريكية تريسي هاريس (**Tracie Harris**). و ربما يلاحظ القارئ معي أن أغرب ما في الأمر هو النتيجة الغريبة والعجيبة التي وصلت إليها تلك الملحدة والتي مع غرابتها نجد أن جميع الملحدين تقريباً يتوافقون معها، ذلك علىٰ الرغم من أن الدعاية الرئيسة التي يستخدمها الملحدون في الترويج لبضاعتهم هي التفكير الحر والمستقل والمتحرر من جميع القيود. لكن وبالمصادفة اتفق معظم الملاحدة علىٰ طريقة التفكير التي تحكيها القصة التالية..

---

(١) هو نفسه البرنامج الإذاعي الأمريكي الشهير (The Way of the Master) والذي بدأ في ٢٠٠٦م إلىٰ ٢٠٠٨م حيث تم تغيير اسمه إلىٰ (Wreched radio).

https://www.youtube.com/watch?v=fG2ffBV4VbE

هناك مقطع على الإنترنت تظهر فيه ملحدة اسمها تريسي هاريس (Tracie Harris) في إحدى حلقات برنامج تجربة الملحد (the atheist experience) يبدأ وهي تقول[1]: «إن الناس الذين لم ينشؤوا على التربية الدينية قد يناقشون المتدينين إلى أن يصلوا إلى نقطة يقول فيها المتدين: حسناً؛ لا أدري ماذا أقول لك لكنني مؤمن فحسب، أنا أشعر بأن هناك إلهاً. والملحد في تلك اللحظة سيقول لنفسه: ما الذي حدث للتو؟ لقد قضيت أسبوعين على الإنترنت أجادل هذا الشخص، مفنداً حُججه باحثاً في نظريات علمية ومعلومات متعلقة بالموضوع، وفي آخر الأمر يقول لي إن من غير المهم أنك دحضت كل ما قدمته، أنا مؤمن على الرغم من ذلك؟! السبب في ذلك هو أنه تم غرس الإيمان فيهم من سن الثالثة...» إلى أن قالت: «بخصوص هيتشنز.. شاهدت بالأمس مقطعاً له على الإنترنت مع شخص أعتقد أن اسمه كان تود فريل (Todd Friel).. ولم أعرف من أعدّ ذلك اللقاء» (تقولها ضاحكة) «الشخص المقدم كان مؤمناً وكان لديه عدد من الأسئلة.. وبدأ يقول:..سوف نفترض فرضاً: ماذا لو أن إله المسيحية الذي ترفضه موجود حقّاً؟.. سنفترض وجوده ثم سأخبرك بالأوامر الدينية وأنت تقول لي كيف قد يغير ذلك من نظرتك للأمور.. إذا كان الرب هو مَن خلقك ألا تعتقد أنه سيكون من الواجب عليك أن تطيعه في كل شيء؟ يجيب هتشنز: بالطبع لا! ثم يقول الشخص: تذكر أننا نفترض وجود هذا الإله الذي هو إله الكتاب

(1) https://www.youtube.com/watch?v=__t7k0unHjk

المقدس. هيتشنز يرد: نعم أفهم ذلك. ولكنني لا أعتقد أن ذلك يعطيه الحق.. أعني بأي حق يملي عليّ جميع ما يجب أن أفعله؟.. يعود الشخص: تذكر أننا نفترض هنا.. يجيب هيتشنز: نعم أفهم ذلك الافتراض بأن ذلك الإله موجود. يقول الشخص: هو مَن صنعك! هو مَن صنعك وأعطاك الحياة.. يجيب هيتشنز: بالطبع لا.. لست مجبراً علىٰ طاعته».. وتستمر تريسي هاريس في الحوار والضحك إلىٰ أن تصل إلىٰ قول هيتشنز: «أنا أفهم الافتراض.. أنا أفترض معك أن إلهك هذا موجود حقّاً، وأنا أخبرك بأن أوامره ونواهيه لا تهمني. إن كانت أوامره تتضمن أن أعبده وأن أقضي حياتي وأنا أمجّده لمجرد أنني علىٰ قيد الحياة فلا.. لن أفعل ذلك ولن أشعر بالمسؤولية لفعل ذلك».

في النهاية ختمت كلامها متعجبة من موقف المذيع: «لم يتمكن من أن يفهم أن شخصاً ما قد يفهم السيناريو الذي يشرحه ثم لا يتفق مع استنتاجاته الخاصة!»!!.. «هيتشنز يفهم تماماً ما تقوله، أنت مَن لا يفهم أن شخصاً قد يفكر بطريقة تختلف عن طريقتك». انتهىٰ.

حسناً.. إليكم ما تتفق عليه تلك المرأة مع باقي الملحدين: أن يقول لك شخص مؤمن بعد أن تنفد منه الحُجج إنه سيبقىٰ علىٰ إيمانه رغم كل شيء هو أمر صاعق لا يفهمه أحد. ولكن حينما يقضي كريستوفر هيتشنز عشرات الساعات التلفزيونية والإذاعية محاولاً دحض (فرضية وجود الإله) ويكتب في ذلك الكتب والمقالات ويقيم المناظرات؛ ثم يأتي في نهاية الأمر ويقول بعد ذلك كله: حتىٰ لو كان ذلك الإله موجوداً فلن يشكل ذلك أي فرق فإننا بطبيعة الحال نعتبر ذلك استنتاجاً خاصّاً به.. وذلك بالطبع أمر مختلف

تماماً عن ما يفعله المؤمنون الجهلة!

* لو تأمل الملحد (بصدق) في حقيقة ما يعتقده لعرف أن العقل قد تبرأ منه كما تبرأ هو من العقل، ولم يبق لديه شيء حقيقة سوىٰ أهوائه التي هو علىٰ استعداد لأن يفديها بآخرته. ولا أسوأ من اتّباع الهوىٰ إلّا اتّباع كافر يكفر لمجرد الكفر مثل هيتشنز الذي يدعو الناس بكل بذاءة وقلة أمانة إلىٰ استنتاجاته التي لا يحكمها شيء سوىٰ كراهية الدين.

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ (الصافات: ٢٤ -٣٢).

وقد حكم المولىٰ سبحانه أن مصير جميع المشتركين في ذلك الحوار واحد حين قال: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (الصافات: ٣٣- ٣٥).

إن سبب ذلك المصير المفزع للكافرين المكذبين هو اتباع الهوىٰ إلىٰ درجة تفوق أي وصف. وهو الأمر الذي يخفيه الملحد عادة بغطاء العلم والعقل بينما السبب الحقيقي هو اتباعه الأعمىٰ للهوىٰ وأئمة الضلال؛ وهيتشنز أكبر دليل علىٰ ذلك وأوضح مثال. إذ لا نكاد نجد ملحداً يختلف مع هيتشنز في مسألة. حتىٰ تأييده لغزو العراق الذي تبرأ منه الساسة أنفسهم الذين أمروا بتنفيذه زاعمين بناءه علىٰ معلومات استخباراتية خاطئة؛ لم يتراجع هيتشنز عن الدفاع عنه فكذلك فعل بعض أتباعه من الملاحدة. غزو

العراق عندهم لم يكن خطأ لأن **هيتشنز** يقول ذلك. أقول «**بعض**» الملاحدة لأن الأمر ليس له علاقة بالدين هنا، لكن حين يتكلم **هيتشنز** ضد الدين فإن اختلاف الملحد معه حول أي نقطة يعتبر عندهم مُخرجاً من الملّة.. وللقارئ أن يجرب انتقاد مقال، محاضرة، مقطع فيديو أو أي شيء آخر يتكلم فيه **هيتشنز** ضد الدين.

بعض المواقع المتخصصة في عرض مقاطع الفيديو لديها خاصية تمكن المستخدمين من تقييم ليس فقط المقاطع بل وتقييم التعليقات التي يضعها مشاهدوها. وقد قمت مرة بتجربة بسيطة وهي أنني كنت أعلق فقط على بعض مقاطع **دوكنز** و**هيتشنز** خصوصاً بعبارة (**I disagree**) أي: أنا أختلف معه. وذلك لرؤية ردود الأفعال التي ستصدر من الملاحدة أتباع المتكلم..

والنتيجة: تقييم دون الصفر بمراحل، استهجان وعبارات من قبيل: لعل **دوكنز** (أو هيتشنز أو غيرهما) سيترك نقد الأديان بالكلية لأن أحمق مثلك لم يتفق معه.. مع أنني لم أشرح سبب اختلافي معه! مجرد الاختلاف هو الحمق بعينه في نظرهم. كيف لا وأستاذهم ينتقص في ذلك المقطع من الأديان ويهاجمها بكل الطرق والأساليب. فمَن من الملاحدة عساه أن يختلف مع ذلك؟ ولماذا؟

- يبالغ الملاحدة في إيهام أنفسهم أولاً وبقيّة الناس بعد ذلك بأنهم أصحاب الفكر الحر. وذلك بتشبيه محاولة قيادة مجموعة من الملاحدة بمحاولة قيادة **قطيع من القطط** [وهي مقولة يرددها ريتشارد دوكنز كثيراً]. أو تشبيه تأسيس نادٍ للملحدين بتأسيس نادٍ لمَن لا يلعبون كرة الطاولة مثلاً

ونحـو ذلـك مـن عبـارات خاويـة. ولكـن.. إذا كـان التنـوع والاخـتلاف بـين الملاحـدة كبيـراً إلـىٰ هـذا الحـد، فمـا هـي يـا تـرىٰ أكـبر نقـاط الخـلاف بـين الملحدين في العصر الحالي؟ هل تختلف مثلاً إجابة شخصين ملحـدين علىٰ أسئلة مـن قبيـل: هـل التطوريـة الداروينيـة صـحيحة؟ هـل هنـاك شـيء خـارج الكون المـادي؟ هـل يتطلـب وجـود الخـالق وجـود خـالق قبلـه ليخلقـه؟ هـل يمكن أن يستقي الإنسان أخلاقه من مصدر لاديني؟ هـل كـان الإلحـاد سـبباً فيما أقدم عليه كل من هتلر وستالين؟ هل كان هتلر ملحداً؟ هل كان آينشتاين ملحداً؟ هل سيكون العالم مكاناً أفضل بدون الأديـان؟ هـل يمكـن أن يكـون للكون إلهٌ رحيمٌ؟ هل يميل الملاحدة إلىٰ التعـصب لأفكـارهم كمـا هـو حـال باقي البشر؟ هل تؤيد الإجهاض؟ ماذا عن تدريس نظرية الخلق؟

هل كل ما سبق يشكل نقاط اختلاف أم اتفاق بين الملحدين؟

الواقع أن بعض الأمور السابقة والمتفق عليها عنـدهم لا يملكـون عليهـا دليلاً من الأصل، وبعضها ليس فيه شـيء مـن منطـق ومـع ذلـك تبقـىٰ موضـع اتفاق عندهم. لماذا؟

عودة إلى حبرهم الأعظم

- في برنـامج "رأسـاً لـرأس" (Head to Head) علـىٰ قنـاة الجزيـرة الإنجليزية[1] سُئل ريتشارد دوكنز عن الجانب الإيجابي للدين بدلاً من تركيزه

(١) اللقاء الذي أجراه معه مهدي حسن (Mehdi Hasan) في ٢٠ يوليو ٢٠١٣م بعنوان:=

الدائم علىٰ الجانب السلبي.. فأجاب بما كان يحاول الظهور به طوال تلك المقابلة وهو أنه: لا يأبه كثيراً بأمر الدين سواء بسلبياته أو إيجابياته.. إنما شغفه فقط بالحقائق العلمية والبحوث والاكتشافات.

وهذه إن لاحظتم حيلة قديمة استخدمها رجال الأديان المختلفة في الأزمنة الغابرة. فمثلاً استخدمها القساوسة في الكنائس منذ أن بدأ العلم يتعارض بشكل صارخ مع كتابهم المقدس، فصاروا خلال لقاءاتهم مع مناظريهم يقولون إنهم لا يؤمنون بالكتاب المقدس بشكل حرفي. وهو بالطبع أمر أكرِهوا علىٰ قوله ولم يختاروه. فإما ذاك أو أن يضطروا لمواجهة كل أسئلة واستشكالات معارضيهم. لكنهم وعلىٰ الرغم من ذلك القصور المريع كانوا ولا زالوا ما أن يختلوا بأتباعهم الذين هم علىٰ ملّتهم حتىٰ يستأنفوا تلقينهم بأن الإنجيل هو كتاب الإله الخالق اللامتناهي في النقاء الخالي من الأخطاء، فكيف يختلف هذا عما يفعله دوكنز؟

حين لم يستطع دوكنز أن ينفي العلاقة بين إلحاد الشيوعيين وبين ما اقترفوه من فظائع (كما سيأتي) فقد اكتفىٰ بقول إنه لا يعتقد أن الإلحاد كان أصلاً من أصول الشيوعية. وحين تمت مواجهته بأنه دائمـاً ما يلوم الدين في نشوب الحروب والصراعات وبعض الأعمال الفردية التي عادة ما توصف بالإرهابية مغفلاً الجوانب الأخرىٰ؛ قال إن هناك جوانب أخرىٰ ويمكننا أن نذكرها، ثم اعترف أنه لم يكن للدين أي دخل في كثير من الحروب عبر

=هل الدين خير أم شر؟ Is religion good or evil

https://www.youtube.com/watch?v=U0Xn60Zw03A

التاريخ، مثل أسوأ حربين في التاريخ البشري وهما الحربان العالميتان، وكذلك الحرب الباردة، وحرب فيتنام! كل ذلك عند المواجهة.. لكن ماذا حينما يكون الخطاب موجهًا إلىٰ أتباعه؟.. بدأ دوكنز الفصل السابع من (وهم الإله) بمقولة الكاتب المسرحي الأيرلندي شون أو كيسي (Sean O'Casey): **«قتلت السياسة الآلاف، ولكن الدين قتل عشرات الآلاف»**!.. ولما سُئل عن تركيزه المستمر علىٰ سلبيات الدين قال إن شغفه محصور في الحقائق العلمية وإنه لا يأبه كثيراً بالدين ككل. نفهم إذاً أن **دوكنز** يهاجم الدين بالباطل، وحينما يأتيه الرد الذي يُسكته يقول: لا تهمني أصلاً إيجابيات الدين ولا سلبياته. وكأن لسان حاله يقول: أنت ترد علىٰ كلام قلته أنا فقط من أجل زيادة المبيعات ليس أكثر.

يتساءل الملحدون أمثال **دوكنز**: متىٰ سيعترف رجال الكنيسة أن كثيراً مما يدّعونه لا أساس له من الصحة وأن دافعهم لتغييب الحقيقة عن عوام النصارىٰ غرضه الحفاظ علىٰ سلطتهم ومناصبهم أفراداً ومؤسسات وحتىٰ دولاً واتحادات؟ علىٰ الأرجح حين يعترف **دوكنز** وأمثاله بأن الهجوم العنيف علىٰ الدين في عالم يغلب عليه التدين مُربح جداً. في حين أنه في كتبه ومحاضراته الموجهة في أصلها إلىٰ الملاحدة وأشباه الملاحدة يُحمّل الدين مسؤولية شبه كاملة عن الحروب والنزاعات فيما ينفي ليس فقط العلاقة؛ بل وإمكانية العلاقة بين الإلحاد وبين الحروب والجرائم الأخرىٰ.

- يذهب المتدينون إلىٰ دور العبادة وهم يعلمون أنهم سيستمعون إلىٰ تمجيد وتعظيم للآلهة التي يعبدونها. وكذلك يفعل الملحدون. فعند شرائهم

لكتاب عن الإلحاد هم يبحثون عما يدعم إلحادهم بكل وجه من الوجوه؛ منطقيًا وأخلاقيًا وغير ذلك. بيد أن الملحدين ينفردون بخاصية لا يكاد ينافسهم فيها أحد.. ألا وهي الاستمتاع بالهجوم علىٰ ما يعتقده الآخرون. مجرد الهجوم لم يكن يومًا مشكلة، بل نوعية الهجوم هي ما يدعو للاستغراب.. ولكن للوهلة الأولىٰ فقط. فمَن يستغرب هجوم الملحدين أمثال **دوكنز** و**هتشنز** علىٰ الدين بالباطل أكثر من الحق فعليه مثلاً أن يتخيل **دوكنز** وهو يسرد في كتابه وهم الإله جميع الأسباب التي نشبت بسببها الحروب في الماضيين القريب والبعيد وبشكل يتناسب مع تأثيرها الفعلي والحقيقي. ثم يتصوره وهو يشرح كيف كان الإلحاد وكراهية الدين دافعين رئيسين محركين لآلة القتل الشيوعية.. فيما لا يكون الدين في بعض الأحيان موحداً فحسب للجماعات المتنازعة في مواجهة عدو مشترك؛ بل إنه كثيراً جداً ما كان سبباً في منع وقوع الحروب. المشكلة فقط أنه لا يوجد كتاب (علىٰ حد علمي) يتكلم عن تلك الحروب التي لم تقع وكان الدين هو السبب في عدم وقوعها.

كم نسخة كان **ريتشارد دوكنز** سيبيع من كتبه - لا سيما وهم الإله - إن استخدم أسلوب الحياد المطلق؟ ألا يعطي هذا معنىً جديداً لعبارته المكررة: **أنا أهتم فقط بالحقيقة ولا شيء غير الحقيقة**؟ هل كان سيُغفل ما يريده جمهوره (الملحد) ويجازف بعدد النسخ المبيعة فقط من أجل الحقيقة والموضوعية وما شابه ذلك؟

- يقول **ريتشارد دوكنز** في مقابلاته ومناظراته أن الزعيم النازي **أدولف**

هتلر (Adolf Hitler) كان مسيحيّاً كاثوليكيّاً؛ لكنه أكد في (وهم الإله) أن إلحاد هتلر كان وما زال أمراً مختلفاً عليه، وأن العبارات التي يُنسب له بعضها تثبت أنه رفض الدين الذي نشأ عليه، وبعضها تؤكد أن الرب كان يسكن قلبه في كل خطوة كان يخطوها. وقد أورد دوكنز في (وهم الإله) العديد من تلك العبارات. فمن المقولات التي تثبت أنه كان مسيحيّاً هي ما قاله في العام ١٩٤١م لمساعده الجنرال جيرالد إنجيل (Gerhard Engel): «**سأبقىٰ كاثوليكيّاً للأبد**».

أما العبارات التي تثبت أنه كان ملحداً فمنها قوله: «**إن أقوىٰ ضربة تلقتها الإنسانية تمثلت في قيام المسيحية**» وكذلك قوله: «**السبب في أن العالم قديماً كان في غاية النقاء والضياء والهدوء تمثل في عدم معرفته بالسوطين الكبيرين: داء الجدري والمسيحية**». وقد أورد دوكنز في وهم الإله هذه الأقوال كلها وزاد عليها أيضاً.

مع أنني شخصياً لا يهمني كثيراً إيمان المشاهير من إلحادهم؛ إلا أنني أود أن أسأل: في حال صحّت نسبة جميع الأقوال التي ذكرها دوكنز إلىٰ هتلر فأي الأمرين أكثر منطقية.. أنه كان ملحداً في حقيقته ولكنه كان يحاول استغلال الدين في التأثير علىٰ العوام الذين يغلب عليهم التدين خصوصاً إذا ما ثبتت لديه بالتجربة فاعلية عبارة مثل (هذه مشيئة الرب)؟.. أم أن الأمر الأقرب للمنطق هو أن هتلر كان مسيحياً في حقيقته لكنه كان يتظاهر من وقت لآخر بأنه ملحد؟ وماذا عساه أن يستفيد من أمر كهذا؟! لماذا يتعامىٰ الملحد عن حقيقة أن عقله أصبح يرفض وبشكل تلقائي أن ينسب أحد شيئاً (أو

شخصاً) سيئاً أو غير مرغوب فيه للإلحاد؟

بالنسبة لي مرة أخرىٰ؛ لا يعنيني كثيراً إن كان هتلر مؤمناً أم غير ذلك، أنا أتوقف فقط للتعجب من اتفاق الملحدين علىٰ تلك المسألة وحسمهم لها بالإجماع وهم مَن يتظاهرون دائماً بأنهم أصحاب التفكير الحر وغير المقيد.

نفق مظلم

- **لا يمكن أن يقوم شخص بعمل إجرامي باسم الإلحاد..** تصريح جريء! لكن صاحبه عادة ما يراهن علىٰ الجزء المُبهم فيه، لذلك يقول مردفًا: كيف يمكن لشخص أن يرتكب جرمـًا في سبيل عدم الإيمان بشيء ما؟ عدم إيماني بوجود الغول أو التنين لا يدفعني للقيام بشيء. أقول: نعم.. ولكن كراهيتك للدين والمتدينين قد تفعل ذلك، معتقدك بأن: لا إله في الكون، ولا حساب بعد الموت، والحياة مادة قد يفعل ذلك.

- يحاول الملحدون تصوير معتقدهم علىٰ أنه مساحة شاسعة من الفكر يمكن للإنسان الانطلاق فيها إلىٰ أي اتجاه يريده وبحرية تامة. ولكن الإلحاد حقيقة هو عبارة عن نفق ضيق لا يمكن لأحد أن يدخله وأن يتحرك داخله بحرّية. فما أن يدخل من طرفه إنسان حتىٰ تتضاءل الخيارات أمامه إلىٰ درجة يمكن معها أن نتوقع جميع إجابات الملحد قبل أن ينطق بها. فإذا قال الملحد مثلاً أن ليس للكون خالقٌ؛ يجب عليه أن يُتبع ذلك بنفي وجود أي شيء غير المادة المحسوسة؛ ولا خيار أمامه سوىٰ ذلك. ثم إن أي ملحد (معاصر) يجب أن يؤمن بالتطور، ويعارض فرض أي نوع من القيود علىٰ الحريات،

ويُكثر الحديث عن المصادفات وما يمكن أن ينتج عنها، وغير ذلك من قواعد الإلحاد غير المكتوبة.. إذاً هي خطوة تستلزم خطوات.

الفكرة الأساسية التي أريد إيصالها هنا هي أن أفكار الإلحاد ما هي إلا أفكار متسلسلة تقود باتجاه واحد وذلك بعكس ما يحاول الملاحدة إظهاره؛ حتىٰ يختلط علىٰ المتشكك الفرق بين حرية الملحد في تصرفاته اليومية مع حرية فكره وتعدد خياراته. والحقيقة هي أن للملحد أن يفعل ما شاء وقتما شاء ولكن عقله يظل دائماً داخل ذلك النفق.

* ليس هناك أي وجود منطقي لما يزعمه بعض الملاحدة عن أنفسهم أنهم داروينيون في حياتهم بكل نواحيها إلّا فيما يختص بصراع البقاء. إذ يقولون أنهم يؤيدون صنع اللقاحات والأدوية ويدعمون التبرع للفقراء ومساعدة الضعفاء.. فماذا إذا قرر أحد الملاحدة - ستالين مثلاً - أن يمضي قدماً بالنظرية حتىٰ النهاية؟ هل يكون علىٰ خطأ؟ وعلىٰ أي أساس يمكن تخطئته؟

الواقع إن النفق أضيق بكثير من أن يتقافز فيه الملحد بإجاباته المتسرعة المعروفة عنه.

صراحة يتبعها كذب

بالعودة إلىٰ مقابلة هيتشنز الإذاعية التي كان يفترض فيها هو ومحاوره وجود الإله سأله المذيع: **ماذا تعتقد سيكون مصيرك بعد أن عصيت الرب؟ هل سيدخلك الجنة أم النار بعد كل هذا؟** أتىٰ جواب هيتشنز الصريح: «**أتمنىٰ**

أن مصيري لن يكون إلىٰ الجنة».

وقد حصل هيتشنز علىٰ كل ما أراده من ذلك التعليق. فالملاحدة الذين يشاهدون ذلك المقطع عادة ما تختلط عندهم مشاعر الإعجاب مع الدهشة من تلك الإجابة ويصفون هيتشنز بالبطولة والشجاعة ونحو ذلك، وهو بالضبط كل ما أراده هتشنز خلال حياته.

لكن في لقاء هيتشنز مع جيريمي باكسمان (**Jeremy Paxman**) الذي عرض في ٢٩ نوفمبر عام ٢٠١٠م علىٰ الـ(**BBC newsnight**) بعد أن مرض هيشنز مرض موته [1]؛ سأله باكسمان عن ما يُعرف بـ "رهان باسكال" (**Pascal's Wager**) والذي يقول: لو لم تؤمن وكنت مخطئاً فمصيرك الهلاك في الآخرة، ولكنك لو آمنت فليس لديك ما تخسره بأي حال. كان جواب هتشنز أنه سيقول للإله حين يلقاه بعد أن كان قد مات علىٰ الإلحاد: **«أرجو أنك لاحظت أنني لم أتحمل أفضالاً من أحد. وأنني لم أتمكن بأمانة من تصديق الادعاءات التي قدمها المتحدثون باسمك من البشر»**. ثم يتساءل هيتشنز: **«هل أحصل الآن علىٰ بعض التفهم؟ وإن لم يأتِ ذلك بنتيجة فلا أعرف ماذا بقي**. ثم يستدرك قائلاً: **ولكنني لن أتذلل بأي شكل، أنا أصرّ علىٰ هذه النقطة»**!

ما الذي يقوله ذلك الرجل؟ كلامه في المقابلة الإذاعية كان حاسماً: **[ليس لأحد - يعني الإله- الحق في أن يملي عليّ أفعالي أو أن يحاسبني عليها]**. لماذا إذاً (يتنازل) ويقول كلاماً مثل: لم أتمكن من التصديق، هل أحصل

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=LIVEsa2g4ag

علىٰ تفهم لأجل ذلك؟

الخلاصة: يمكن لأعمىٰ البصر أن يرىٰ ما ذكره القرآن في مواطن كثيرة من أن الكفر يكون بسبب التكبر عن عبادة الله وليس بسبب نقص الأدلة أو ما شابه. ولكن أعمىٰ البصيرة يُفضّل السير وراء هيتشنز ومَن هم علىٰ شاكلته إذا قالوا إن عدم وجود الدليل هو سبب كفرهم بالخالق ﷻ، وقالوا إنهم بحثوا بصدق ولم يجدوا الإيمان. ثم إذا تغيرت أهواؤهم في لحظة أخرىٰ وأصبحت أكثر ميلاً نحو التحدي و(تصعيد المواجهة) قالوا صراحة إنهم لن يؤمنوا ولو خاطبهم الإله بنفسه مخاطبة مباشرة.

* إن المشكلة التي قد ترمي بالملاحدة أمثال هتشنز في قعر جهنم إلىٰ أبد الآبدين؛ هي أنه لا يعترف أن تكذيبه للأدلة أو زعمه عدم كفايتها؛ متأثر بشكل كلي ومباشر بقرار كفره الذي ينص علىٰ أنه لن يؤمن ولن يطيع أوامر الرب مهما كانت الظروف والمعطيات، فهو يكفر بالإله ويتحداه بذلك القول أولاً؛ ثم يدّعي بعد ذلك أنه ينظر إلىٰ أدلة وجود ذلك الخالق بكل حياد وعقلانية.

يقول الخالق ﷻ: ﴿ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (النحل: ٢٢- ٢٣). ويقول في شأن أناس علىٰ شاكلة **ريتشارد دوكنز وكريستوفر هيتشنز:** ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل: ٢٥) إلىٰ أن قال: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى

﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ (النحل: ٢٨- ٢٩). إذ نلاحظ تكرار مرادفات كلمة التكبر.. ثم ذكر سبحانه في آخر الآيات المصير الذي تودي إليه عبارات مثل: **إلهك وهمي**؛ ولكن حتىٰ إن لم يكن كذلك فلن أومن به.

أمارات الضلال

- في مناظرة دوكنز مع القس جيلز فريزر (Giles Fraser) علىٰ إذاعة الـ (BBC)[1] امتعض القس كثيرا من محاولة ريتشارد دوكنز نفي صفة الغنتماء للديانة المسيحية عن كثير من النصارىٰ في بريطانيا عن طريق الإشارة إلىٰ عدم إيمانهم بأمور تُعد جوهرية في ذلك المعتقد، الأمر الذي حمل القس علىٰ أن يطلب من دوكنز أن يذكر العنوان الكامل لكتاب تشارلز داروين الأشهر "أصل الأنواع"، لكن دوكنز لم يتمكن علىٰ الرغم من الثقة المفرطة التي كان يتحدث بها من أن يذكر العنوان الكامل؛ بل إنه خلال محاولاته اليائسة لذكره تحسر قائلاً: **يا إلهي!**.. لا ينبغي منطقيا أن تتأثر "رسالة" دوكنز بفشله في تذكر اسم الكتاب، ولكن الواقع هو أن لمثل هذه الحادثة أثراً أكبر بكثير علىٰ آراء البعض من القبض عليه متلبساً بالكذب وقلب الأدلة وغير ذلك من الكوارث كما سيأتي، وهو ما يخبر بالكثير عن منطقية تلك الطرق المتبعة من قِبل البعض.

---

(1) The debate between **Richard Dawkins** and **Giles Fraser**.
https://www.youtube.com/watch?v=RTV-py1W8Rk

- إن من أظهر الدلائل التي تدل على عدم أمانة منتقدي الإسلام الغربيين بصفة خاصة، هي قولهم عند سؤالهم عن الإسلام بأنهم لا يعرفون عنه الكثير. وهي عبارة مُخففة تعني: لا أعرف شيئاً عنه. ومع ذلك تجد أن دوكنز وهيتشنز وغيرهما ممَن يهاجمون الإسلام في الغرب يتكلمون كخبراء ليس فقط في الدين الإسلامي وتاريخ الإسلام؛ بل وفي مفردات اللغة العربية [كلاهما استخدم كلمات عربية مثل كلمة «وهابي» في حديثه أمام جمهور بالكاد يعرف كلمة إسلام والغرض من ذلك بالطبع هو إيهام السامع بسعة العلم والاطلاع على المصادر العربية ذاتها] ويتكلمون كخبراء في تفسير القرآن والأحاديث النبوية. ولكن حينما تسألهم سؤالاً مباشراً: هل درست الإسلام؟ تأتي الإجابة الصريحة التي قالها هيتشنز: ليس فيه ما يُدرس!.. ودوكنز ليس أفضل حالاً من قرينه.. فكثيراً ما اعترف بأنه لا يعرف الكثير عن الإسلام. ومرة أخرى ما ذاك إلّا تخفيف لعبارة: لا أعرف شيئاً عنه.

والغريب أن ذلك الجهل الذي أقر به دوكنز في أكثر من مناسبة لم يمنعه من امتداح بعض كتابات المرتد الحاقد الذي يلقب نفسه بابن وراق[1] حينما

---

(١) ابن الوراق هو اسم حركي يُطلق على كل متمرد على الدين الإسلامي، والشخص المعني هنا كان ابناً لوالدين مسلمين هنديين ولد عام ١٩٤٦م ثم انتقل وأهله إلى باكستان وحصل على جنسيتها، ولما سافر لاحقا للدراسة في بريطانيا تشوهت عقيدته الإسلامية بشكل شبه كامل من تشويهات المستشرقين وغيرهم، فحاول أن يبتدع ديناً جديداً ممزوجاً بالعلمانية التي لا تعترف بالمقدسات وتوافق على حرية سب الإله والرسول إلخ.

تحدث عن أصول الإسلام وعمّا يعتقد أنه تصاعد في حدّة خطابه مع مرور الوقت. امتدح دوكنز ذكاء ذلك الأفّاك في الوقت الذي كان فيه الكثير ممَن يعتبرون من أهل الاختصاص كـ فريد دونر (Fred Donner) أستاذ الدراسات الإسلامية والشرق الأدنىٰ بجامعة شيكاغو؛ قد اتهموا ابن وراق بتزوير الحُجج والإجحاف والتحامل الزائد علىٰ الإسلام وعدم الموضوعية وغير ذلك من الطوام!

فهل سأل الملحد العربي نفسه يومـاً كيف يمكن لدوكنز وأمثاله اكتشاف الكذب المتعمد والتشويه الذي قد يقوم به ابن وراق ومَن هم علىٰ شاكلته؟ هل لو وصل الحد إلىٰ تزوير التاريخ بشكل كامل واختراع قرآن جديد وأحاديث جديدة هل سيتمكن ملحدو الغرب من معرفة ذلك أو ملاحظة أي اختلاف؟

مَن أراد إجابة واضحة عن مدىٰ علم دوكنز بالإسلام أنصحه بمتابعة لقائه علىٰ الجزيرة حينما سأل دوكنز المحاور عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

طرائف كراوس

- **لورانس كراوس** عالم الفيزياء النظرية الملحد صديق **ريتشارد دوكنز** وشريكه في "بطولة" فيلم "غير المؤمنين" **(The Unbelievers)** يحاول دوما إثبات إمكانية نشوء الكون من لا شيء وبشكل تلقائي بقوله[1]: «**إن ما كان الناس يعتقدونه في السابق عدماً أو فراغاً تامّاً هو في حقيقته ليس كذلك.**

(1) https://www.youtube.com/watch?v=UemhCsaeGgc

فميكانيكا الكم تعلمنا أن الفراغ في الحقيقة مليء بالجسيمات ما دون الذرية والتي تظهر إلىٰ الوجود وتختفي للعدم بشكل تلقائي ودائم (تتذبذب). والحقيقة أن ميكانيكا الكم تضمن مع ذلك النوع من اللاشيء إنتاج شيء بعد قدر كافٍ من الزمن. لذلك فإن الفراغ المليء بالأشياء والفراغ الخالي من الأشياء هما وجهان لعملة واحدة. ولهذا لا يعتبر الانتقال من اللاشيء إلىٰ كل شيء أمراً مفاجئاً».

منذ أن طغت نظرية الانفجار الكبير علىٰ الساحة العلمية وتضافرت الشواهد الكثيرة عليها لم يستطع الملاحدة الخروج من المأزق الذي وضعتهم فيه. فقد بقي سؤالٌ بحجم «ما أصل الكون» بلا إجابة لعقود طويلة، مما اضطر بعض الملاحدة أن يأتوا ببعض الأعاجيب كما فعل كراوس هنا. فعلىٰ الرغم من أن النظرية تقول إن الكون بكل ما فيه من مادة وطاقة وإشعاعات وزمكان (أي الزمان والمكان) وقوانين فيزيائية لم يكن له وجود قبل الانفجار العظيم، فإن كراوس يُبقي علىٰ مشاهدات فيزيائية بعينها ويستثنيها من المشهد بأكمله ألا وهي ميكانيكا الكم [وهي القوانين الفيزيائية المستخدمة علىٰ مقياس الجسيمات الأصغر من الذرة]، حيث يقول أنها كانت موجودة قبل الانفجار الكبير وأنها هي التي بدأت الكون.. وبالطبع ليس لذلك الادعاء أي دليل علمي ولا عملي، هو ببساطة رقعة مؤقتة لا يمكن لاختراعه أن يكتمل دونها[1]. والعجيب أنه اعترف حين سُئل إن كان

(١) يستغل الفيزيائيون الملحدون أمثال لورانس كراوس وستيفن هوكينج جهل عامة الناس بعالم الكم وقوانينه ومشاهداته في التلاعب بكلمة (عدم)، حيث العدم الذي يعرفه الناس=

هناك أي شيء يثبت أن تلك القوانين تعمل في اللامكان؟ فأجاب بالنفي قائلاً: إننا نعيش في كون يحتوي المكان!

* من الواضح إذاً أنه لا يوجد أي دليل علمي أو منطقي يدفع كراوس للقول أن أيّاً من قوانين الفيزياء أو الجسيمات الكمية كان موجوداً في اللامكان وقبل وجود الكون. وأن ما يدفعه لذلك فقط هو حلم الملاحدة الأكبر والذي تأخر على نحو مقلق بالنسبة إليهم وهو إثبات نشوء الكون من العدم وبدون أي تدخل من خارج الطبيعة.

* كلما تحدث كراوس في محاضرة أو كتاب أو مقابلة يحاول على الدوام أن يعطي انطباعاً بأن أفكاره عن العدم أو اللاشيء وعن قوانين الفيزياء في عدم وجود الزمكان تعتبر هي التوجه العام للعلماء وأنها تمثل المنطق البدهي البسيط. ولكن تعارض أفكار كراوس الصارخ مع العقل يتضح بشكل جليّ في مناقشة دخل فيها مع بعض المختصين في لقاء سنوي يقدمه عالم الفيزياء الفلكية نيل ديغراس تايسون **(Neil deGrasse Tyson)** ويرعاه المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي وكان بعنوان: **وجود اللاشيء (the Existence of Nothing)** [1]، حيث حاول كراوس بشكل واضح تفسير العدم بأنه عدم

=هو العدم المحض أي (اللاشيء) تماما، ولكن العدم في ميكانيكا الكم يُسمىٰ بالفراغ الكوانتي أو الكمي (Quantum vacuum) ويحتوي علىٰ حد أدنىٰ من الجسيمات دوماً لا يمكن تفريغه منها وتمثل الحد الأدنىٰ أو الصفري من الطاقة (Zero-point energy) في أي مكان:

http://www.calphysics.org/zpe.html

(1) https://www.youtube.com/watch?v=XYohZRivNhI

وجود أي شيء باستثناء المقادير التي يحتاجها هو في اكمال فكرته العجيبة، وهو ما لم ينجح بالطبع في تسويقه. وهو ما جعل الفيلسوف الملحد والكاتب في الحقل العلمي جيم هولت (**Jim Holt**) يرد علىٰ المقدم الذي سأله عما لا يعجبه في تعريف كراوس للعدم بأن قال: «**بداية وكما يعترف بذلك كراوس نفسه أن (اللاشيء) الذي يصفه هو (شيء). وحينما تبدأ بتناقض فإنه سيكون بمقدورك أن تشتق ما شئت.. إنه شيء فيزيائي، له بنية، يطيع القوانين الفيزيائية المعقدة وهناك الكثير من الأمور التي تحدث فيه. فحسابي البنكي حتىٰ وإن كان خالياً فإنه يظل شيئاً.. وذلك الفراغ الذي يصفه يُعد شيئاً أكثر بكثير من حسابي البنكي**»!.. رد كراوس علىٰ ذلك الهجوم المدمر علىٰ فكرته التي ألّف فيها كتاباً كاملاً (**كون من لاشيء، لماذا هناك شيء عوضاً عن اللاشيء**) بأن قال خطبة مفادها أن سؤال (**لماذا**) ليس مهمّاً بل سؤال (**كيف**) هو المهم؛ محاولاً إضحاك الحضور خلال كلامه حتىٰ لا يتنبه أحد أن لا إجابة لديه.

كراوس حاول أيضاً إقحام فرضية **الأكوان المتعددة** في شرحه لفكرته المتخبطة والتي لا تستحق حتىٰ الاستمرار في شرحها.. حيث قال إنه حتىٰ قوانين الفيزياء لا يلزم أن تكون موجودة لبدء الكون! مما جعل المقدم يسأله: ولكنك قلت إن تذبذباً كميّاً هو ما أتىٰ بالكون للوجود؟! فأجاب: **ذلك لأنني أتحدث عن ميكانيكا الكم في كوننا ولكن هناك افتراض عجيب**.. وهو أنه في حال وجود الأكوان المتعددة فإن قوانين الفيزياء تأتي للوجود حينما تأتي الأكوان للوجود.

وبهذا يكون كراوس قد طبّق وللمرة الثالثة على الأقل مقولة "قمامة داخلة قمامة خارجة" (**Garbage in garbage out**) وبحذافيرها.

* كان كراوس قد بدأ كل تلك الكوارث بكارثة قد تكون هي الأكبر خلال ذلك النقاش حين قال: «**عندما تطبق ميكانيكا الكم على الجاذبية، ليس لدينا نظرية في الجاذبية الكمية بعد لكن بعض الناس يعتقدون أننا نقترب من ذلك؛ لكن على أي حال ميكانيكا الكم تخبرنا أن الأشياء تتذبذب، وإذا كانت الجاذبية هي عبارة عن نظرية عن الزمكان، وقمت بجعل الزمان والمكان متغيرات كمية فإن من المحتمل جدّاً للأكوان أن تظهر للوجود فجأة.. زمان ومكان يظهران فجأة للوجود من العدم**». هنا قاطعه جيم هولت (الملحد) بقوله: «**تقول إن زماناً ومكاناً يظهران للوجود.. أنت تجعل الأمر يبدو وكأنها عملية مؤقتة محددة هي ذاتها بزمان**» فأجاب كراوس برائعته التي قال فيها: «**المشكلة هي أنني استخدمت كلمات**»!.. مما أضحك ريتشارد جوت (**Richard Gott**) الذي كان يجلس إلى جواره. فعاود هولت الهجوم قائلاً: «**ذلك يشير إلى زمان معين.. لا يمكنك أن تجعل الزمان يظهر إلى الوجود كما لو أنه في ذاته حدث وقتي محدود بزمن، ليس في ذلك أي منطق، ولذلك من الجيد أن تكون قريباً من الفلاسفة - وأنا لا أعدّ نفسي واحداً منهم - كي يساعدوك على استخدام اللغة بشكل دقيق**»!

المشكلة أن كراوس بنى بناءه على الجاذبية الكمية التي قال هو نفسه أن لا وجود لها "بعد"، ثم افترض أن الزمان والمكان يمكن أن يظهرا تبعاً لافتراضه الأول.. ثم كانت النتيجة النهائية أن وقع في ذلك المطب الذي

قضىٰ عليه فيه هولت. أي إنه احتاج للخيال وإلىٰ افتراضات كثيرة لكي يصل إلىٰ لا منطقه الذي أحرج به نفسه!

* أما فرضية **الأكوان المتعددة** ذاتها فلا أبلغ في وصف ما وصل إليه بعض دعاتها من قلة المنطق من نقل أفكار بعضهم حول ما دفعهم للقول بها في المقام الأول: .. يمكن تفسير الدقة اللامتناهية التي تظهر علىٰ بناء هذا الكون بافتراض وجود أكوان أخرىٰ لا حصر لها تفتقر إلىٰ تلك الدقة الموجودة في هذا الكون، عندها لن يكون غريبا علىٰ كوننا أن يكون بهذا الضبط الدقيق فسوء تصميم الأكوان الأخرىٰ سيكون دليلا علىٰ أن دقة تصميم هذا الكون أتت عن طريق المصادفة.

وهنا تتجلىٰ نظرية آلهة المصادفة في أقبح وأوضح صورة. فحين يقول الملحد بأكوان لا يمكن أبداً الاستدلال علىٰ وجودها بالعلم المادي والتجريبي ثم يزعم أن غالبية تلك الأكوان التي ابتدعها هي غاية في الفوضوية وعدم الدقة في مقابل أكوان قليلة - أحدها كوننا - مضبوطة مصادفة بدقة لا متناهية حين يقول بذلك كي يثبت عشوائية الوجود؛ حينها يكون الملحد قد أعلن صراحة ورسميّاً عن إفلاسه.. ولا غرابة أن يدافع **ريتشارد دوكنز** عن تلك الفرضية كما فعل في نهاية مقابلته علىٰ الجزيرة الإنجليزية.

* إن العلماء أمثال **كراوس ودوكنز** يكرهون الخرافات ولا يؤمنون إلا بما يثبت بالتجربة والدليل العلمي إلا في حالة واحدة علىٰ ما يبدو؛ وهي أن يأتوا هم بالخرافات التي تناسبهم.. وحينئذٍ؛ لا مانع من تلويث العلم نفسه إذا كان المقابل هو إسكات المتدينين ولو لبعض الوقت. والطريف أن كراوس

علىٰ وجه الخصوص كثيراً جداً ما يردد عبارة: **علينا ألا نخاف من العلم**.. وذلك حق بالطبع.. إنما علينا الحذر فقط من بعض (العلماء) ممَن هم علىٰ شاكلة دوكنز وكراوس.

* أما عالم الفيزياء الفلكية (الإعلامي) **نيل ديغراس تايسون (Neil deGrasse Tyson)** فإنه دائمًا ما يدافع عن فرضية الأكوان المتعددة بمغالطة مختصرها أن الاعتقاد الذي كان سائداً بأن الشمس هي جرم سماوي فريد في الكون قد ثبت خطؤه، وكذلك القول بأن مجرة درب التبانة هي الكون بأكمله. لذلك ربما يكون أمر الكون مماثلاً لذلك الاعتقاد القديم، ويكون هناك أكوان كثيرة لا نعرف عنها شيئًا في الوقت الحالي.. لكن المغالطة الواضحة التي لا يشير إليها ذلك "العالم" هي أن الناس قديمًا كانوا يعتقدون بأن الكون هو الجزء الذي تمكنوا من رؤيته فقط، ولما قويت أدوات وملكات العلم لديهم تمكنوا من رؤية ما هو أبعد فعرفوا خطأ ما كانوا عليه. لكن القول بالأكوان المتعددة ليس كذلك علىٰ الإطلاق، إذ ليست المسافات ولا المساحات ولا الأحجام هي العائق هنا، بل كل شيء في الكون! لا يمكن للمادة أو الطاقة أو الضوء أو القوانين أو أي شيء يمكن أن نفكر فيه أن ينتقل بين تلك الأكوان المزعومة لذلك لا يمكن أبداً الاستدلال علىٰ وجودها مهما قويت الأدوات المعرفية التي لدينا، ولهذا لا يستفيد العلم والبشر ولا حتىٰ الشجر والحجر من القول بتلك الأكوان، فقط يستخدمها الماديون والملحدون القائلون بالعشوائية كوسيلة هروب أبدية باقية لا يمكن اثبات خطئها أبداً.

- كما أتىٰ كراوس بالأعاجيب في محاولته الإجابة علىٰ سؤال كيفية نشوء الكون من العدم، فكذلك فعل صاحبه ريتشارد دوكنز في محاولته تفسير مصدر الخلية الحية الأولىٰ التي بدأت الحياة كما نعرفها، وذلك حينما حاول إقحام كائنات فضائية في العملية! ﴿ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٢).

وهذا بالضبط ما يحدث حين يتظاهر العالِم بأن العلم فقط هو كل ما يهمه، وهو في الحقيقة لا يريد شيئاً سوىٰ أن يضع حدّاً (أو إجابة) لسؤال يهدد مصدر رزقه. إذ لا يليق بأمثال أولئك العلماء أن يستمروا في استخدام الإجابة البالية نفسها لكل تلك العقود: لا نعلم ولكن البحث العلمي الذي سيجد الإجابة (التي تتوافق مع الإلحاد) ما زال جارياً. ولذلك وجب الابتداع اللامنطقي المتهالك.

قصة وعبرة؟

- المحصلة النهائية لكل ما جاء في هذا الفصل ألخّصها في القصة التالية:

ذكر دوكنز في (وهم الإله) أن تشارلز داروين كان هدفاً لـ (إشاعة مغرضة) مفادها أن داروين تراجع عن كثير من معتقداته حينما كان علىٰ فراش الموت، وبعد أن هاجم دوكنز بشراسة تلك الأقوال ذكر في هامش الصفحة ذاتها أنه هو نفسه "تعرض لتنبؤات" تقول إنه سيفعل الشيء ذاته إذا حضره الموت، ولذلك يقول دوكنز إنه سيحمي سمعته بأنه سيقوم بتسجيل لحظاته الأخيرة صوتاً وصورة.. وقد كرر الكلام نفسه في مقابلات عديدة منها مقابلته علىٰ قناة

(**TVO**) الكندية في برنامج (الأجندة)[1]. وكذلك قناة (**HBO**) الأمريكية عام ٢٠٠٨م. حين ظهر دوكنز كضيف عبر الأقمار الصناعية في برنامج المقدم الملحد بيل ماهر (**Bill Maher**) وقال إنه[2]: من الاعتيادي أن يكون الناس أمثاله ضحايا لروايات خبيثة تقول إنهم تراجعوا عن آرائهم قبيل موتهم؛ ولذلك عند موته سيكون لديه شهود وكاميرا تسجيل!.. وهل بعد هذا شيء؟.. ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف: ٥٧).

***

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=5I0Z3jzd2YM

(2) https://www.youtube.com/watch?v=8fUYUvvJiW0

وجود الإله؛ غموض أم تدليس؟

سؤال معقد جداً تتطلب الإجابة عليه بحوثـاً طويلة ودراسات معمّقة لأقـوال مَـن بحثـوا في ذلـك الموضـوع مـن العلمـاء والفلاسـفة الـسابقين والمعاصرين، ثم مقارنة ما توصلوا إليه من نتائج. وبعد ذلك كله (قد) يتم الوصول إلىٰ استنتاج تقريبي خاص لا يعدو كونه ميلاً نحو إجابة معينة دون الأخرىٰ؛ إذ لو كان للمسألة جواب حاسم لما امتد النقاش حولها عبر تلك القرون الطويلة والأزمنة المديدة. ثـم إن كـل ذلـك لا يـشكل إلا الخطـوة الأولىٰ والتي تليها خطوة ثانية لا تقل عنها تعقيداً ألا وهي: في حال وجود إله للكون فأي الديانات تكون هي الديانة الصحيحة..

أليس ذلك هو الحال مع سؤال وجود الخالق؟

الجواب ببساطة: كلا، ليس الأمر كذلك علىٰ الإطلاق.

ذكرت سابقـاً أن الإجابة علىٰ السؤالين الأصليين؛ وجود الخالق والدين الحق ليست صعبة، بل علىٰ العكس تماماً هي صعبة الإنكار. المشكلة فقط هي في أهواء البشر.

- سُئل ريتشارد **دوكنز** في مناسبات عديدة السؤال الشهير: ماذا لو كنت علىٰ خطأ؟ وقد أجاب علىٰ ذلك السؤال كثيراً؛ إلا أن الإجابة التي أفضلها

شخصياً منتشرة في مقطع فيديو على الإنترنت عليه تاريخ **2006/10/23**م[1]..

بعد انتهاء محاضرة لدوكنز في احدى الجامعات الأمريكية؛ جاء السؤال مختصراً جدّاً من فتاة انتظرت دورها لتسأل المحاضر قائلة: **لعل هذا السؤال سيكون الأسهل بالنسبة إليك ولكن ماذا لو كنت على خطأ؟**.. فجاءت إجابة دوكنز على النحو التالي: «.. **يمكن لأي شخص أن يكون على خطأ يمكن أن نكون جميعاً مخطئين بشأن وحش الاسباغيتي الطائر ووحيد القرن الوردي وإبريق الشاي الطائر، لقد صادف أنك ولدتِ - كما أفترض - في الديانة المسيحية، أنت تعلمين كيف هو أن لا تؤمن بدين معين لأنك لست مسلمة ولا هندوسية، لماذا لست هندوسية؟ لأنك ولدت بالمصادفة في أمريكا وليس في الهند. ولو أنك ولدت في الهند لكنت هندوسية... لو أنك نشأت في أواسط أفريقيا لكنت تؤمنين بالجوجو العظيم في أعلى الجبل.. ولو أنك ولدت في... لكنت تؤمنين بـ..**» ثم قال: «**لا يوجد سبب محدد لاختيار إله اليهود والمسيحيين الذي نشأتِ بالمصادفة وأنتِ تؤمنين به. ثم تسألينني ماذا لو كنتُ على خطأ؟ ماذا لو كنتِ أنتِ على خطأ بشأن الجوجو العظيم في قاع البحر؟**».

وما كاد دوكنز ينتهي من "إجابته" تلك حتى صفق له الملاحدة في القاعة إعجاباً بإجابته المفحمة!

نذكّر بأن الملحدين ينتقدون أتباع الأديان على أن إيمانهم عادة ما يقف حائلاً بينهم وبين المنطق السليم؛ لذلك يصدقون ويقتنعون بكل ما يصدر عن

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=6mmskXXetcg

رجال الدين الذي ينتمون إليه وبدون أدنىٰ تفكير. ولكن.. حينما يأتي مَن يوصف بأنه أشهر ملحد في العالم ويجيب علىٰ سؤال ماذا لو كنت علىٰ خطأ بالسؤال: وماذا لو كنت أنت علىٰ خطأ؛ فإن الإجابة لا تكون مقنعة فحسب.. بل وتستدعي الإعجاب والتصفيق!

لقد بدأت هذا الفصل بهذه الحادثة لأذكّر بأن الملحدين لا يتخذون قراراتهم المتعلقة بالدين بمعزل عن العاطفة. ولذلك صفقوا لإجابة **دوكنز** بدلاً من أن يستنكروها؛ وإلّا فما الذي يدفعهم إلىٰ ذلك التصرف اللامنطقي؟ ثم كيف يمكن للطرف الآخر إقناع أمثال هؤلاء ممَن يعجبون بقلة المنطق - أو انعدامه - ويصفقون له؟

- يقول **ريتشارد دوكنز** إنه ولد في أسرة تتبع المسيحية الإنجيلية، وفي مرحلة مبكرة من مراحل حياته لاحظ أنه يدين بذلك الدين فقط لأن والديه كانا من أتباعه. وكانت تلك الملاحظة حسب ما يقول هي سبب اقتناعه لاحقًا بأن المصادفة هي التي تلعب الدور الرئيس والأهم في تحديد الدين الذي سيتبعه أي إنسان؛ فابن الملحد ينشأ ملحداً وابن اليهودي يكبر يهوديّـًا وابن الهندوسي سيبقىٰ هندوسيّـًا.. وما من خيار.

ما يقوله **دوكنز** والملحدون معه هنا هو أن الناس ينقسمون إلىٰ قسمين: أتباع للأديان ورثوا ما كان يردده أجدادهم من أساطير، وملحدين رفضوا كل الأديان جملة واحدة.

* والآن إليكم طريقة أخرىٰ يمكن استخدامها في النظر إلىٰ هذا الأمر..

خلق الخالق الخلائق وأمرهم بأوامر معينة، ثم اقتضت حكمته أن

تنقسم البشرية إلىٰ قسمين؛ قسم اختار أن يطيع خالقه وآخر قرر أن يعصيه.

القسم الأول هم أتباع الأنبياء في كل زمان ومكان.

والقسم الآخر هم مَن سلكوا طريقاً مغايراً لطريق الأنبياء؛ وهذا القسم هو من التنوع والاختلاف إلىٰ درجة يتعذر معها علىٰ الكثيرين ملاحظة أوجه التشابه بين المنتمين إليه. يقول الله ﷻ في سورة آل عمران: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩)، وبذلك قسّم الخالق سبحانه البشر إلىٰ القسمين السابقي الذكر.

* من الناس مَن قال أن لكل شيء في هذا الكون إلهاً خاصاً به، ومنهم مَن قال أن للكون ثلاثة من الآلهة. وهناك مَن قال أن الشمس هي الإله، وهناك مَن راهن علىٰ القمر. وهناك مَن عبد الحيوانات والشجر والحجر، وهناك مَن قال بوجود إله خالق ثم نسب له الأبناء، وهناك مَن زعم أن الخالق تصارع مع أحد البشر فصرع المخلوق خالقه! وهناك مَن قال أنه يؤمن بإله خلق الكون ثم تركه يدير نفسه بنفسه، وهناك مَن قال أن الخالق يثيب الناس ويعاقبهم في الدنيا دون حياة أخرىٰ يحاسب فيها الخلائق. ومن الناس مَن يعتقد أن خالق الكون خلق شراً محضاً يُدعىٰ الشيطان ثم أخذ هذا الشر يتزايد ويقوىٰ إلىٰ درجة لم يعد معها للخالق قدرة في السيطرة عليه. ثم أخيراً؛ هناك مَن قال أن الحياة بدأت بمصادفة غامضة تطورت بعدها بشكل بطيء إلىٰ أن وصلت إلىٰ ما هي عليه اليوم. وزعم أن الكون ظهر للوجود مصادفة أيضاً وبطريقة غير معروفة هو الآخر. وهو بذلك يجعل رهانه علىٰ أمرين:

أولهما ظاهر والآخر باطن. أما الأول فهو أن العلم سيكشف مستقبلاً أسرار بداية الكون. والثاني هو أن التفسير الذي سيقدمه العلم سيثبت أن الكون وُجد من تلقاء نفسه بدون تدخل خارجي.

* وكأن الله ﷻ كان يتكلم عن أصحاب المعتقدات السابقة جميعاً حين قال: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (مريم: ٣٧).

* لقد اتفق جمهور علماء المسلمين علىٰ أن الكفر ملّة واحدة.

* قد أمر الله ﷻ الناس أن يكونوا مسلمين؛ فإن عصوّه في ذلك بعد أن بلغتهم رسالته: لم يكن لتفاصيل معصيتهم له وكفرهم به أهمية كبيرة. فالناس إما أن يكونوا مسلمين أو غير مسلمين. فإن كانوا علىٰ الإسلام فإن الله تعالىٰ أوجب عليهم أمرين أساسيين بالنسبة للعقيدة:

الأول/ شكر الله تعالىٰ وحمده علىٰ نعمة الإسلام التي لا تضاهيها نعمة.

الثاني/ عدم التوقف عن دعوة الآخرين ممَن ولدوا ونشؤوا علىٰ غير الإسلام إلىٰ دين الله ﷻ

* حينما توفي النبي ﷺ كان الإسلام لا يتجاوز حدود جزيرة العرب، فنشره بعد ذلك الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون إلىٰ أجزاء كبيرة من الكرة الأرضية. وبقي دين الله يزدهر وينتشر ويحيي القلوب بعد موتها إلىٰ أن جاء من أبناء المسلمين جيل هو للأسف أقرب وصفاً إلىٰ مَن قال الله تعالىٰ

عنهم: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ (مريم: ٥٩).

وقد لا نتفق علىٰ تحديد الفترة التي هوىٰ وانحدر فيها المسلمون إلىٰ أن وصلوا إلىٰ ما هم عليه اليوم من تذيل أمم وشعوب الأرض في كثير من أمور الحياة. ولكن الأمر الذي لا يكاد يختلف عليه اثنان هو أن الأمر يزداد سوءًا مع مرور الوقت. وحتىٰ المتفائلون بأن الإسلام سينهض قريباً لا يمكنهم أن ينكروا أن الأمور في الماضي علىٰ اختلاف البيئات والظروف كانت أفضل من الحاضر الذي نعيشه اليوم. والسبب هو أن الإسلام بدأ برجل كاد يُهلك نفسه من شدة الحرص علىٰ هداية من أظهروا له العداء، ثم بدأ أتباعه بعده في الضعف إلىٰ أن صار بعضهم يخرج من دينه دون أن يدري؛ وكما يحدث اليوم في بعض المناطق في آسيا وأفريقيا حيث يختلط الإسلام بالديانات الوثنية حتىٰ أصبح مسلمو الأمس هناك مشركي اليوم، وذلك علىٰ مرأىٰ ومسمع من بقية مسلمي العالم الذين يشاهدون ذلك الواقع المفزع وهو يُعرض في بعض البرامج الغربية علىٰ أنه التقاء رائع بين الأديان وتمازج جميل بين الثقافات!!

كذب على الإيمان!

- بالعودة إلىٰ مسألة الإيمان بوجود الإله أذكر هذه المقولة التي رددها الملحدون كثيراً حتىٰ صدّق بها بعضهم وسلّم بصحتها؛ وهي تعريف الإيمان بأنه: **أن تصدق أمراً بدون دليل وكلما كان الأمر غير قابل للتصديق كان**

الإيمان أفضل وأقوىٰ. حيث لم يبق ملحد في ظني إلا وقال بالعبارة السابقة - أو ما يشابهها - وهي من العبارات المفضلة عند **ريتشارد دوكنز** خاصة.

* بداية أقول إن كلمة (الإيمان) نعني بها عادة كمسلمين الاعتراف أو الإقرار. وهو ما نقصده حينما نذكر الإيمان بالله ﷻ للملحدين. فالإيمان بالله إذاً يعني الإقرار بوجوده. والأدلة علىٰ هذا المعنىٰ واضحة جدّاً.. فمثلاً يقول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، وقال سبحانه لنبيه **إبراهيم** عليه السلام حينما سأله أن يُريه كيف يحيي الموتىٰ: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

نؤمن نحن المسلمين بأن رسولنا ﷺ صعد إلىٰ السماء السابعة، وأن ربه ﷻ كلمه بدون وسيط وأنه رأىٰ الجنة والنار بعينيه، وأن **إبراهيم** عليه السلام كلمه ربه وكذلك **موسىٰ** عليه السلام وغيرهم من الأنبياء؛ ومع ذلك نحن نَصِف الأنبياء بأنهم مؤمنون.. كيف نقول إن الإيمان هو التصديق بدون دليل، ثم نقول مثلاً إن محمداً ﷺ كان يؤمن بالجنة والنار وقد رآهما رأي العين؟

إذا تعريف الإيمان عند الملحدين خاطئ من أساسه..

علىٰ أن ذلك لا ينفي أن هناك إيماناً بدون دليل عندنا نحن المسلمين، ولكنه إيمان من نوع مختلف عمّا في ذهن الملحد لأنه إيمان يأتي بعد الإقرار والاعتراف. فالمسلم يقرّ أولاً أن الله تبارك وتعالىٰ هو خالق الكون وأن **محمداً** ﷺ رسول الله للناس وأن القرآن العظيم هو كلام الله.. وقد أعطانا الخالق سبحانه الأدلة علىٰ ذلك - وسنأتي علىٰ بعضها بالتفصيل - لذلك كان لزاماً علىٰ المسلم أن يقرّ بكل ذلك إقراراً واعترافاً، أما ما يلي ذلك

الاعتراف فيكون إيماناً. لذلك لا يؤمن المسلم بوجود الملائكة لأنه يعتقد أن العلم سيثبت وجودهم مستقبلاً بل يؤمن بهم لأن خالق الكون [الذي ثبت عند المسلم ربوبيته] أخبره بوجودهم. وينطبق الأمر نفسه علىٰ يوم القيامة وعلىٰ أخبار السابقين وعلىٰ غير ذلك من الأمور التي لا يمكن لأحد معرفتها إلا بوحي من الخالق.

قصة و.. ماذا؟

- إن من علامات عدم الصدق التي نراها كثيراً عند ملحدي هذه الأيام هي التفكير بالطريقة التي نقلها **دوكنز** في وهم الإله عن ممثلة ومؤلفة أمريكية تدعىٰ **جوليا سويني (Julia Sweeney)**.. حسب دوكنز فإن المفترض بتلك القصة أن تكون مضحكة مؤثرة وملهمة. لكن الحقيقة أن فكرتها مضللة جداً ومنافية للمنطق السليم إلىٰ درجة الفجاجة..

تحكي تلك الممثلة أنه في أحد الأيام انتابها شعور مفاجئ أن الله غير موجود. تصارعت مع الأمر قليلاً مستخدمة اللامنطق التالي:

«لكنني لا أستطيع. لا أعرف إن كان بمقدوري أن لا أومن بالله. أنا أحتاج إلىٰ الله، أعني أن هناك تاريخاً يجمعني به»..

«لكنني لا أعرف كيف أتوقف عن الإيمان بالله، لا أعرف كيف تفعل ذلك. كيف تستيقظ وكيف يمر عليك يومك».. إلىٰ أن "اعترفت" أنها تساءلت بينها وبين نفسها بهذا التساؤل الذي كان مخجلاً بالنسبة إليها: «كيف

تبقىٰ الأرض معلقة في السماء هكذا؟ تعني أننا نندفع متجولين في الفضاء فحسب؟ ذلك وضع هشّ للغاية!».

إلىٰ أن وصلت إلىٰ النقطة الحاسمة: **«ثم تذكرت؛ آه أجل الجاذبية والعزم الزاوي سيبقياننا في حالة دوران حول الشمس وعلىٰ الأرجح لمدة طويلة جداً».**

إن الفهم السقيم الذي يحاول بعض الملاحدة نشره هو أن نفي وجود الخالق (أو مجرد تدخله) يمكن أن يكون بشرح الآلية التي يعمل بها شيء كان يقال عنه إنه من صنع الله، فإن استطاع شخص فهم القوىٰ الفيزيائية المؤثرة علىٰ بقاء الأرض أو القمر أو غيرهما في مدارات محددة قال: هذا ما يبقيها إذاً وليس الله كما كنت أعتقد!

سؤالي هو: بماذا كان يعتقد قبل ذلك بالضبط؟ هل كان يظن مثلاً أنه إذا بحث المسألة علمياً كان سيجد دليلاً علىٰ أن الملائكة هي التي تقوم بدفع كل نجم وكل كوكب في مداره الخاص به؟! أنا أحاول بصدق أن أتصور فهمهم السابق قبل اكتشافهم العظيم. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦- ٧).

* إن النتيجة الحتمية لمثل ذلك التفكير المُغرق في السطحية وقلة الفهم أو بالأصح عدم الرغبة في الفهم ربما بسبب عدم الاكتراث؛ هي أن يكون لدينا عبارة مثل: (نحن لا نحتاج إلىٰ وجود إله) لأن كثيراً من الأمور التي كنا نظن أن الله هو مَن يحكمها أثبت العلم الحديث أن قوانين الفيزياء هي ما تتحكم بها وليس الله.

لو أن شخصاً أسس شركة ما ووضع لها نظاماً إدارياً معيناً فإن من البدهي أن نقول إنه كلما كان ذلك النظام فعالاً ومتناسقاً قلّت الحاجة إلىٰ تدخل مباشر من واضع النظام. ولو احتاج الموظفون والمديرون في تلك الشركة إلىٰ تدخل المؤسس في كل صغيرة وكبيرة لما كان لذلك النظام فائدة تذكر، وكانت الفوضىٰ هي التي تحكم. والأمر ذاته ينطبق علىٰ الآلة التي لا تعمل إلا بتدخل بشري مباشر طوال الوقت.

ذلك هو الحال مع شركة يؤسسها بشر وآلة يخترعها إنسان، فكيف حال الكون الذي أوجده رب البشر ووضع قوانينه خالق كل شيء؟.. الله تعالىٰ وضع قوانينَ ونواميسَ تحكم الكون، ولا أدري كيف يستدل البعض بوجودها علىٰ عدم وجوده.

لا يعرف البشر إلا الشيء القليل عن أسرار هذا العالم (ناهيك عن الكون). ثم إن جهل الإنسان بالطبع يزداد ويتضاعف إلىٰ أن يكاد يصل إلىٰ درجة الجهل التام إذا ما تعلق الأمر بتفاصيل الطريقة التي يدبر بها الخالق أمر هذا الكون. كل ذلك يجعل من عبارة مثل (الكون لا يحتاج إلىٰ إله) عبارة سخيفة إلىٰ درجة الإسفاف. ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ (الروم: ٧).

ولعل الخطأ الأكبر الذي يقع فيه قائل تلك العبارة هو أنه يحكم بعدم حاجة الكون إلىٰ وجود إله دون أن يكون لديه أدنىٰ تصور للكون الآخر الذي يحتاج إلىٰ وجود إله. كيف يحاول فاقد الخيال أن يتصور ما وراء الطبيعة؟

دوكنز والجينات المتدينة

- لا يمكن الحديث عن رؤية ريتشارد دوكنز لأصل الأديان من دون ذكر مقابلته على قناة (BBC) البريطانية في برنامج كلام صعب (HARDtalk) الذي يقدمه المذيع ستيفن ساكر (Stephen Sackur)[1].. ولعل أبرز ما جاء في تلك المقابلة كان في جزئها الأخير؛ حينما قال دوكنز إنه واثق تماماً من أن في جينات البشر ما يدفعهم إلى التدين.. وهنا أنقل جزءاً من ذلك الحوار لأهميته.. يسأل المقدم:

- «.. **أنا أفهم وجهة نظرك على أنك تؤمن بالتطورية التي يتحكم بها الجين الأناني، وفي النهاية فإن هذا الجين الأناني لا ينتج أشياءَ بالمصادفة كما تعلم هناك تصميم [تنظيم] أعظم للكون الذي نراه حولنا، وذلك ينطبق على تصرفات البشر وينطبق على الأفكار أيضاً كما أفهم، تماماً كما العالم المادي. إن كان كل ذلك صحيحاً فلماذا إذاً مليارات من البشر على سطح هذا الكوكب يجدون معنىً فعليّاً في الدين إذا لم يكن ذلك لغرض تطوري؟**

- .. **أعتقد أن الدين عامة هو شيء كوني يضم العرق البشري فقد وُجد في كل الحضارات ولا أقصد كل فرد فيها ولكنه وُجد في كل الحضارات. أعتقد أنه على أي دارويني [تطوري] أن يقول إنه - أي الدين- بطريقة ما هو من إنتاج عقولنا والتي نتجت بدورها عن طريق الانتقاء الطبيعي الداروويني. عقولنا**

---

(١) أذيع اللقاء ٣ مرات على القناة – مرتان في يوم ٢٤ يوليو ٢٠٠٧م والثالثة في كريسماس نفس العام.

https://www.youtube.com/watch?v=YQghm5QSsx0

بطريقة ما هي ميّالة إلىٰ أن تكون متدينة أنا واثق أن ذلك صحيح.. ولكن ذلك لا يجعل التدين صحيحاً..

- ولكن لماذا؟! أعني إن كان ذلك صحيحاً أن أدمغتنا تميل إلىٰ اعتناق الأديان فبالتأكيد أن في أدمغتنا أداة تدفعها لذلك؟

- حسناً.. حتىٰ لو كان فيها أداة فإن ذلك لا يجعل الأمر صحيحاً». انتهىٰ.

إن الأداة التي تحدثنا عنها هي ذاتها الفطرة التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ حين قال: «**ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يُهوّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجّسانه**»[1].. ودوكنز واثق تماماً أنها موجودة عند البشر دون أن يعرف لها تفسيراً داروينيّاً. لكن ذلك لم يمنع دوكنز وكما هو متوقع من أن يبذل كل ما في وسعه حتىٰ يمنع المتدينين من الاستفادة من ذلك الاعتراف، فقد أخذ يكرر ويعيد أن الإنسان قد يخدع نفسه بأي شيء ويقنعها بأي وهم إن كان ذلك يمنحه شعوراً أفضل.

لكنه لم يقل إن خداع النفس صفة متأصلة في أدمغة البشر كما هو التدين لذلك فالمقارنة غير صحيحة من أساسها.. إذ إن الميل للتفاؤل مثلاً ليس كالميل للتدين حسب شرحه.. ولكن كما نعرف فإن من عادة **دوكنز** وغيره من قادة الإلحاد اليوم أن يُتبِعوا كلمة الحق التي يَندُر أن يتفوهوا بها بالكثير من التدليس والقياسات الخاطئة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، كنت أنا وأمي من المستضعفين أنا من الولدان وأمي من النساء (١٢٩٢).

* من الطريف أن يختلف بعض الملاحدة مع دوكنز حينما يقول إنه واثق أن في جينات البشر ما يدفعهم إلىٰ التدين، ويصرّون دون علم ولا دليل علىٰ أن الأصل عند البشر هو الإلحاد الذي يولد عليه جميع الناس كما يزعمون، مع أن حديث دوكنز هنا هو حديث عالم أحياء تطوري يتكلم في مجال تخصصه.. أما حينما يخوض دوكنز بجهل تام فيما لا يفقهه ولا يعنيه من أمور تفصيلية تخص الأديان؛ فإنه يعود عند مخالفيه ليكون المؤهَل العبقري، والصادق الذي لا يريد إلا الخير ونشر الحقيقة.

هل آمن العلماء أم كفروا؟

- الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو (**Antony Flew**) المتوفىٰ عام ٢٠١٠م كان داعية الإلحاد الكبير ومحاميه العظيم.. عاش ملحداً قرابة الستة والستين عاماً، إلىٰ أن جاء العام ٢٠٠٤م الذي تراجع فيه عن إلحاده التام وصار يعتقد بأن الكون مصمم ولم ينشأ مصادفة[1].

بالطبع وكما هو متوقع تحمس المؤمنون بالخلق من الغربيين لتراجعه ذاك وأحسّوا بأنه انتصار لهم وصاروا يأخذون أجزاء من آرائه الجديدة ويشهرونها في وجه الملحدين.. فيما تبرأ الملحدون (كما كان متوقعاً أيضاً) من فيلسوف ومفكر الأمس ليصبح مخرّف اليوم ومهزأة المنتديات والمحاضرات ذات الطابع الإلحادي.

---

(١) وصدر له كتابه الشهير: هناك إله (There Is a God) في ٢٠٠٧م.

لن أناقش قطعاً ما جعله يغير رأيه لأن ذلك لا يعنينا هنا، ما يهمنا فقط هو التعرف علىٰ الطريقة التي كان يفكر بها طيلة فترة إلحاده الطويلة جداً.

لعل جانباً هامّاً من ذلك يتضح في المقابلة التي أجراها في أواخر حياته[1]. ففي إجابته علىٰ سؤال المحاور لي باتريك ستروبل **(Lee Patrick Strobel)**: ما الذي يمكن أن يفعله إله المسيحية لكي يقنعك بأنه هو الإله الحق.. استغرق (فلو) وقتاً طويلاً ليجيب بأنه لا يعرف وأنه لم يفكر من قبل في ذلك الموضوع! كيف يمكن لإنسان قضىٰ حياته ملحداً بحُجة أنه لا دليل علىٰ وجود الله ألا يعرف نوعية ذلك الدليل الذي يريده؟ أذكّر أن السؤال في المقابلة كان لـ (**أنتوني فلو**) المؤمن بوجود مُصمم وليس الملحد.. مما يعني أنه ألحد ثم عاد للإيمان بالخالق دون أن يخطر علىٰ باله ذلك السؤال.

لم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي لم يفكر فيه **أنتوني فلو** من قبل، فهناك أمور أخرىٰ قال إنه لم يفكر فيها (بعد) ولكن لن نتطرق إليها هنا حتىٰ لا نطيل، لكن السؤال هو أن ذلك العالم عاش حياته ملحداً ودعا الناس إلىٰ الإلحاد بأن ألّف المؤلفات وأقام المناظرات والمقابلات، وفي آخر حياته رأىٰ أنه كان مخطئاً.. ثم اعترف بأنه كانت هناك بعض الأمور (الخطيرة جدّاً) التي لم يفكر فيها في السابق ولم تخطر علىٰ باله أصلاً، إذاً.. ما يكون مصير أولئك المقلدين الذين اقتنعوا بكلامه وتبعوه طوال تلك السنوات معتقدين **أنه كان قد غطىٰ الموضوع من كل جوانبه وأعطاه حقه من البحث**

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=VHUtMEru4pQ

والتفكير إلىٰ أن وصل إلىٰ النتيجة النهائية التي تبعوه عليها؟

يعرف الصغير والكبير، الأعمىٰ والبصير والعالم والعامي أن من الخطأ التسليم والاندفاع لأفكار الغير دون تدقيق؛ حتىٰ لو كان ذلك الغير يملك عقلاً كعقل آينشتاين[1] أو هوكينج[2] أو غيرهما، لكن الواقع العملي وللأسف الشديد محبط إلىٰ حد كبير.

- كثيراً ما نسمع جدلاً بين المتدينين والملحدين حول ما إن كانت شخصية معينة مؤمنة أم ملحدة.. وخصوصاً الشخصيات العلمية الشهيرة. وقد طال الحديث في هذه المسألة وصار كل فريق من المؤمنين والملحدين يكثر من الاستشهاد بأقوال العلماء وبمواقفهم في هذا الأمر.. وبات كل طرف يفاخر بالمنتسبين إليه من أولئك العلماء، فيما تنازعوا في شأن بعضهم، كما هو الحال مع آينشتاين الذي يدلل المؤمنون علىٰ صحة قولهم بإيمانه بترديد عبارته الشهيرة: «**إن الله لا يلعب النرد**»[3].

---

(١) **ألبرت أنشتاين** (Albert Einstein) أحد أشهر علماء الفيزياء الألمانيين في العالم، ورغم أنه من أبوين يهوديين إلا أنه لم يتقبل فكرة كون الخالق له صورة مثل التي في اليهودية والنصرانية (أي إله مشخص) وهو حائز علىٰ نوبل في الفيزياء ١٩٢١م.

(٢) **ستيفن هوكينج** (Stephen Hawking) من أشهر علماء الفيزياء الملحدين في العصر الحديث، أصيب بشلل نادر في شبابه أقعده بالكامل وهو مرض التصلب الجانبي الضموري أو مرض العصب الحركي، ولم يحصل علىٰ جائزة نوبل مما دعا البعض لتفسير أرائه الإلحادية الشاذة التي يحاول تبريرها بالفيزياء تبعا لرغبته في الشهرة.

(3) William Hermanns. (1983).Einstein and the Poet: In Search of the Cosmic Man Paperback (pp. 58) Brookline Village, MA: Branden Press.

ولكن.. لماذا علينا في الأساس أن نهتم بالدرجة التي وصل إليها إيمان آينشتاين أو بدرجة شكه وإلحاده؟ أو إيمان جاليليو، نيوتن، داروين، هوكينج أو غيرهم؟ .. أيّاً كان معتقدهم فهم علماء أفذاذ لا يختلف اثنان علىٰ ذلك، ولكن هل وصل أحدهم إلىٰ درجة يطمئن فيها الإنسان إلىٰ حكمه في مسألة لا يوازي أهميتها أي شيء في الوجود؟ الإجابة هي قطعاً لا.. بل يتوجب علينا أن نعرف متىٰ نرد علىٰ العالم العبقري قوله ولا نعتد به وننقده، بل ونسفّهه إذا استدعىٰ الأمر.

سؤال أكبر من الكون

- يبدو أن عامة الملحدين لا يسمعون كلام دعاة الإلحاد كما يسمعه باقي البشر. ولعل أخطر مثال يوضح هذا الكلام هو أن الطريقة التي يستخدمها الملحدون بمَن فيهم دوكنز في إثبات عدم وجود الخالق - أو علىٰ الأقل عدم معقولية القول بوجوده - هي باستخدام المنطق التالي: أننا إذا قلنا إن لكل شيء موجداً أو خالقاً فعلينا أن نسأل: مَن الذي أوجد الخالق؟ ثم مَن الذي أوجد ذلك الموجد؟ ومَن خلق الخالق الذي قبله؟ وبذلك ندخل في ارتداد لا نهائي لا مهرب منه. وبذلك أيضاً نجد أن فرضية الإله تتطلب شرحاً أكبر بكثير من الإجابات التي تقدمها في مسألة أصل الكون والحياة؛ لذلك هي لا تصلح.

نعم يا سادة، إنه سؤال مَن خلق الله.

إذ كمدخل للإجابة علىٰ سؤال مَن خلق الله ارتأيت أن أذكر أمراً قد يبدو

لأول وهلة بعيداً عن نقطة البحث، لكن الفكرة التي يشرحها هي لبُّ المسألة.

كثيراً ما يستهزئ الملحدون بالمعجزات التي جاءت في الروايات الدينية المختلفة.. ولكن ما معنىٰ أن يضحك الملحد من قول المسلمين أو النصارىٰ إن السيدة العذراء حملت بالسيد المسيح بدون أب، أو أن يسخر **دوكنز** من قصة الإسراء والمعراج ويشير إلىٰ دابة النبي ﷺ بـ«**الحصان الطائر**»؟

إذا شرحت للملحد أنني أؤمن بالله الخالق الذي لا حدود لقدرته ولا لعلمه؛ فليس هناك ذرّة من عقل ولا من منطق في أن يقول باستحالة أي شيء حدث بأمر ذلك الخالق. لكن الواقع أن الملحد لا يرىٰ فرقًا بين قولي أن الله ﷻ هو خالق السيد المسيح من غير أب وبين ادعائي أنني أنا مَن فعل ذلك، فالقادر - سبحانه - وغير القادر عند الملحد سواء.. لذلك لا تعجب من أن لا يرىٰ الملحد أية غضاضة في أن يسأل سؤالاً من قبيل: إذا كان السيد المسيح قد حصل علىٰ الـ ٢٣ كروموسومًا من أمه فما كان مصدر الـ ٢٣ كروموسومًا الأخرىٰ[1]... والحقيقة أن مثل هذا السؤال لا يُجاب عليه، بل يُتجاهل سائله إن كان مُستهزئًا.. أما إن كان جاداً فتُشرح له معاني المصطلحات: إله؛ خالق؛ مطلق القدرة؛ معجزة.. إلخ.. وذلك سيؤدي الغرض.

---

(١) الكروموسومات أو الصبغيات (Chromosome) هي خيوط من شريط لولبي رفيع جداً يوجد داخل أنوية خلايا أي كائن حي تحمل صفات جسمه الوراثية (وتسمىٰ بالحمض النووي الوراثي DNA) ويختلف عددها وحجمها من كائن إلىٰ آخر، فهي في خلايا جسد الإنسان (٤٦) كروموسوم، وأما في خلاياه التناسلية فتكون النصف (أي ٢٣).

الله ﷻ استنكر سؤال بعض السابقين: ﴿ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾ (يس: ٧٨)، ثم رد ﷻ بقوله: ﴿ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٩). حيث الإجابة أوضح من الشمس، ولكن للأسف لا يوجد شيء على الإطلاق لا يمكن للكفر أن يغطيه ومن ذلك اكتسب اسمه. لأن الكفر في اللغة معناه التغطية، وأولئك الكفار الغريبو الأفكار كانوا يعتقدون بأن الله القادر على كل شيء هو خالق الكون لكنهم تعللوا بتلك الحُجج ليكفروا بالبعث والحياة الآخرة ولأسباب دنيوية غاية في السطحية، فنتج عن ذلك هذا التناقض الذي يراه كل مَن على الأرض باستثناء الكافر.. الكافر الذي كان يؤمن بالخالق المطلق القدرة لكنه شك في قدرته على إحياء الموتى!

على أية حال فإن موقف الملحدين من المعجزات هو الكفر بها إن جاءت وطلبها إن انقطعت؛ كذلك فعل الكفار الذين عاصروا الأنبياء وعلى ذلك يبقى الملاحدة اليوم.

فمَن خلق الله؟

هناك سبب رئيس يمنع ما سبق من أن يكون سؤالاً منطقيّاً..

وهو أن من السذاجة أن يعتقد أشد العباقرة ذكاءً أنه سيتمكن مستخدماً العلم التجريبي والعقل من معرفة أي شيء مهما كان يسيراً عن ذات الإله الخالق. لكن الملحد يصر على الخوض في المسألة على الرغم من أن عقله لا يستوعب أول وأبسط إجابة على ذلك السؤال ويتعطل أمامها متوقفاً بالكلية: [**الله ﷻ أزلي لا بداية له، هو خالق كل شيء ولم يخلقه أحد**]. ومع

أنه أمر أوضح بكثير من أن يحتاج إلىٰ شرح أكثر إلّا أنني أجد نفسي مضطرّاً لذلك لأسباب تتعلق بطبيعة الملحدين الجدلية.

* إن الملحد الغربي تحديداً لن يقتنع بأي إجابة علىٰ هذا السؤال الذي ما كان ينبغي طرحه في المقام الأول، ذلك لأنه يتوقع كما يبدو أن يجد تفسيراً فيزيائيّاً صرفاً لذات الخالق؛ تفسيراً مثل الانفجار الكبير مثلاً. ويتضح ذلك في العبارة التي يرددها دوكنز: **إن اقتراح الإله كإجابة علىٰ سؤال أصل الكون يطرح أسئلة أكثر مما يجيب عليه؛ إذ إن أصل ذلك الإله سيبقىٰ مجهولاً.**

إحدىٰ المشكلات التي تعصف بالمنطق السابق هي أنه لو ثبت أن للكون خالقاً فإن السؤال عن أصل وجوده لن يكون سؤالاً علميّاً.

* يعرف الطفل الصغير أن الخالق أعلىٰ وأعظم من أن يدرك العقل البشري ذاته العليّة. لكن حينما يقع في قلب الإنسان أنه ما من خالق لهذا الكون؛ لا يرىٰ أدنىٰ مشكلة في أن يسأل أسئلة لا يتفوه بها عاقل طالما أن إجابة السؤال تأتي بما يريده.

كيف يحاول مَن يدّعي العقلانية أن يطبق قوانين المنطق والفيزياء علىٰ كيان كان موجوداً قبل وجودها، بل إنه هو مَن وضعها وقدّر أن يبدأ الكون وما فيه بها؟

كيف يمكن لشخص مثل **لورانس كراوس** مثلاً أن يعتقد أن وجود إله مطلق القدرة قبل وجود الكون هو أمر غير منطقي وأن وجود ذلك الإله يتطلب تفسيراً، وفي الوقت ذاته لا يجد حرجاً من أن يقول أن بعض قوانين ميكانيكا الكم كانت موجودة في العدم وقبل وجود الكون. ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ

قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الزمر: ٦٧).

* إن إثبات وجود الخالق يعطينا إجابات وتفسيرات عن أصل الكون وعن أصل الحياة وعن المعايير اللامتناهية في الدقة التي بُني بها الكون مما يُعد أمراً مُحبطاً بالنسبة للملحد الذي يحلو له اللعب بكلمة (مصادفة) حتىٰ وإن كان القول بها مستحيلاً علميّاً. الملحدون هم الذين يفضلون أن يعترفوا بملايين المصادفات التي منها ما هو مستحيل أو مستحيل الإثبات؛ ويقولون إن القول بها أكثر منطقية وأقرب للعقل ويرون أنها تعطي إجابة أفضل من إجابة وجود الخالق مع أن وجود الخالق يغني عن وجود ملايين المصادفات.

المشكلة الثانية في سؤال مَن خلق الله هي أنه حتىٰ لو صح ذلك الفكر السقيم وكان لخالق الكون بداية فيزيائية كتلك - ويتعالىٰ عن ذلك - فإن وصول الملحد المحدود العقل إليها لن يكون إلّا بإذن ذلك الخالق الذي لم يكشف للبشرية إلّا شيئاً يسيراً جدّاً من أسرار الكون بل وأسرار الكوكب الذي تعيش عليه.

* يقول العلماء إن الزمان والمكان يتوقفان في مركز الثقوب السوداء وهي نقطة الجاذبية المتفردة (**Gravitational singularity**) مما يجعل قوانين الفيزياء تتوقف عن العمل هناك، ولتكون تلك الثقوب بذلك لغزاً لن يتم كشفه عمليّاً، إنما من المحتمل التوصل إلىٰ نظريات قد تكون قريبة من واقع ما يحدث داخلها. تلك هي نتيجة تعطل قوانين الفيزياء التي لا يمكن

للإنسان أن يفهم شيئاً دون استخدامها، وهي القوانين التي يصر الملحد على أن يستخدمها خلال محاولاته (المنطقية) لإثبات وجود الخالق ذاته الذي كان موجوداً قبلها، بل إنه هو مَن وضعها! فسبحان الله رب العرش عما يصفون.

الملحد وحده هو مَن يتجاوز تلك المعضلات بكل سرور وبدون أدنى مبالاة؛ وذلك لأن الإجابة لا تهمه. أما المتشكك (الحقيقي) فالأمر مختلف عنده لأن الأدلة تهمّه أيّاً كان الاتجاه الذي تشير إليه.. وهذا هو وجه الشبه بين سؤال مَن خلق الله والاستهزاء بالمعجزات؛ ففي الأمرين نقطة لا يمكن أن يتجاهلها إلّا المعاند الملحد المكابر.

* مرة أخرى، حتى لو فرضنا أن لموجد الكون بداية ومصدراً أوليّاً وبعد ذلك أوجد الكون عن طريق الانفجار الكبير مثلا.. حتى لو أن هذا هو ما حدث فعلاً فمن المستحيل أيضاً أن نعرف أي شيء عن تلك البداية؛ لا عن طريق العلم الحديث ولا التأمل ولا الفلسفة ولا عن أي طريق آخر. لأن الإله بكل بساطة وبكل حتمية سيكون أعظم من ذلك بكثير. ومن العجيب أن ترى بعض العلماء حينما يتحدثون عن عبقرية آينشتاين يكاد الواحد منهم يقول شيئاً أشبه بـ: إنك كي تقدّر مدى ذكائه وعبقريته حق قدرهما عليك أن تمتلك عقله؛ وبما أن ذلك ليس ممكناً فعليك فقط أن تثق بي حينما أقول لك إن ذكاءه لا يمكن وصفه! .. غريب أن يكون ذلك هو تقدير بعض البشر للعقل البشري، أما حين يُسألون عن خالق الكون فيقولون: إذا كان هناك خالق للكون فمَن خلقه؟ يجب أن أفهم من أين أتى، كيف، متى وما هي

دوافعه لخلق الكون وخلقي أنا شخصيًا.. وإلىٰ أن أجد إجابات علىٰ كل تلك الأسئلة فإنني لن أؤمن بوجوده!

هل يمكن أصلاً أن ينتهي سائل بمثل ذلك السؤال العجيب إلىٰ غير الإلحاد؟

أخيراً.. إن من الأسباب التي تدفع كثيراً من الملحدين إلىٰ طرح ذلك السؤال اللامنطقي هو أن من المُحبط بالنسبة إليهم أن يكون هناك أمر لا يمكن تفسيره أو يستحيل الوصول إليه عن طريق العلم التجريبي الذي هو بمثابة الإله الجديد لدىٰ الكثير منهم، ولذلك يحاولون تطبيق جزئياته علىٰ ذات الإله الخالق. وكما بيّنا سابقًا فإن كل المنطق والأدلة التي في هذا العالم يمكن أن يطيح بها قدر يسير من الكبر، فكيف بالمقدار الخيالي الذي في قلوب الملحدين.

ليتك تعرف

إن استهزاء الملحدين لا يقف عند حد معين، فقادة الإلحاد الجديد اليوم أصبحوا يمتهنون الهجوم علىٰ الأديان وعلىٰ فكرة وجود الإله وهدفهم من ذلك بالطبع ليس أكثر من كسب المال والشهرة علىٰ حساب الحقيقة.

وبما أن ما سبق يعتبر ادّعاءً فإليكم البيّنة..

* يُشبّه الملاحدة الإيمان بالإله بالإيمان بشخصيات قصص الأطفال: وحيد القرن الوردي، حوريات البحر، الجنيّات ونحو ذلك من أمور خيالية.. ومن تلك التشبيهات كلام الفيلسوف الملحد برتراند راسل (Bertrand

(Russell) الذي يردده الملحدون كثيراً وذكره دوكنز بالطبع في (وهم الإله):
«لو قلت إن بين الأرض والمريخ إبريق شاي يدور حول الشمس، وهو صغير لدرجة لا يمكن معها رؤيته بأقوىٰ التيليسكوبات فلن يكون بإمكان أحد أن ينقض زعمي، ولو أنني قلت بسبب عدم إمكانية إثبات خطأ ادعائي إنه من غير المقبول أن يشكك الناس في قولي لمجرد أنه يخالف المنطق؛ لاعتبر كلامي هراء لا معنىٰ له. ولكن في المقابل لو أن وجود ذلك الإبريق كان مذكوراً في كتب قديمة، وكانت قصته المقدسة تُحكىٰ كل أحد... فإن مجرد التردد في الإيمان بوجوده يجعل المتشكك غريب أطوار ويحتاج لزيارة الطبيب النفسي في الزمن الحديث؛ أو أن يزوره المحقق في الأزمان الماضية»[1].. هذا هو موقف الإلحاد الرسمي - إن صح التعبير - من القول بوجود الإله، وما سأحاول بيانه هنا هو أولاً صحة ذلك القول من عدمها، وثانياً بيان الأسباب التي تدفع الملحدين إلىٰ تبني ذلك القول في حال لم يكن صحيحاً.

* في كتاب "وهم الإله" هاجم دوكنز بشدة "مَحاجة بيس" (Baysian Argument) التي استخدمها مخرج مسرحي يدعىٰ ستيفن أنوين (Stephen Unwin) لشرح احتمال وجود الإله.. والحقيقة أن المَحاجة بذاتها لا تعنينا في شيء ولكن ما يهمنا كثيراً هو الفكرة الأساسية التي ترتكز عليها وهي أن (فرضية) وجود الإله عند مَن يبحث عن الحقيقة يجب أن

---

(١) نقلا عن برتراند راسل Russell, Bertrand. "Is There a God? [1952]" The Collected Papers of Bertrand Russell, Vol. 11: Last Philosophical Testament, 1943–68. Routledge. pp. 547–548. Retrieved 1 December 2013.

تقوىٰ وتضعف استناداً إلىٰ الأدلة التي تتوفر لديه أيّاً كانت. ولعل هذه النقطة هي النقطة الفاصلة بين الإيمان - أو كما شرحنا سابقاً الاعتراف- وبين الكفر أو الإلحاد. ومَن يقرأ عن درجة إيمان دوكنز علىٰ سلّم الإلحاد الذي وضعه في وهم الإله يعرف أن هذه النقطة تدل وبشكل واضح علىٰ ثبات ذلك الرجل علىٰ الكفر مهما زاد علمه أو نقص.

* إن الزعم بأن الأديان ليست إلا خرافات مختلفة علىٰ الدرجة نفسها من عدم المعقولية هو أول ما يقدح في مصداقية الملحد؛ لأنه يساوي بين جميع الأديان بشكل كامل.. مما يعني مساواة الأديان التوحيدية الثلاثة مثلاً بدين يدعو لعبادة نوع من أنواع الحشرات. والملحد بذلك الزعم كأنما يقول إنه لا يوجد أي دليل علىٰ أن الله ﷻ إله المسلمين [والعالمين] هو خالق الكون تماماً كما لا يوجد دليل علىٰ أن نوعاً من أنواع البعوض هو ما أوجد الكون. بل لو أن شخصاً حمل قلماً في يده وقال: هذا القلم سيكون إلهي من الآن فصاعداً فإن ذلك (الدين الجديد) لا يختلف في نظر الملاحدة عن أي من الديانات الأخرىٰ أيّاً كان معتقدها. لذلك انتقد **دوكنز** في وهم الإله ميل الكثيرين إلىٰ تفضيل الديانات السماوية علىٰ غيرها زاعماً أنه لا يوجد لذلك أي مبرر. وبهذا يضرب الملحد (**دوكنز**) عرض الحائط بالأمر الذي اتفق عليه سابقاً مع المؤمن قبل مناقشة احتمالية وجود إله خالق للكون؛ وهو أنه لو كان هناك خالق للكون فلا بد أن يكون ذلك الخالق **أعظم من كل مخلوقاته**. فليس من المنطقي أبداً أن يقول الملحد إن علىٰ خالق الكون أن يكون أعظم من كل مخلوقاته ثم يضع الأديان التي حققت ذلك الشرط مع الأديان التي

لم تحققه في سلة واحدة.

- نقل دوكنز في وهم الإله عن الطبيب النفسي نيوكلاس همفري (Nicholas Humphrey) قصة فتاة الإنكا الصغيرة التي تم العثور على بقاياها المتجمدة في جبال البيرو عام ١٩٩٥م بعد موتها بـ ٥٠٠ عام. حيث تم قتل الفتاة كقربان للشمس التي كانت تمثل آلهة الإنكا. وقد اعترض دوكنز على ذلك الفعل تماماً حتى وإن كانت الفتاة قد رضيت أن تكون قرباناً، ثم قال: «بغض النظر عما إن كانت ضحية بإرادتها أم لا، فهناك سبب قوي للاعتقاد بأنها ما كانت لترضى بذلك إن كانت تمتلك كامل الحقائق. فعلى سبيل المثال لنفرض أنها كانت تعلم أن الشمس في الحقيقة ما هي إلّا كرة من الهيدروجين، حرارتها أكثر من مليون درجة على مقياس كالفن، تحوّل نفسها إلى هيليوم عن طريق الانصهار النووي. وأنها تشكلت في الأصل من قرص من الغازات شكل أيضاً بقية النظام الشمسي بما في ذلك الأرض... عندها؛ على الأرجح، ما كانت لتعبد الشمس كإله، وكان ذلك سيغير رأيها في تقديم نفسها قرباناً لاسترضاء الشمس». يتكلم دوكنز في أمر بعيد عما أتكلم عنه أنا هنا، ولكن ما فعله دوكنز في هذا الجزء -وكذلك همفري- هو أنه أثبت علميّاً أن الشمس ليست هي الإله خالق الكون! ولا يمكن لعابد الشمس أن يتكلم عن العلم بعد هذا. فإن حدد العلم الحديث زمن وكيفية نشوء إلهك، لن يبقى إلّا أن نضع نقطة على السطر وينتهي بذلك النقاش تماماً.

* والآن؛ كيف يدحض دوكنز وسائر الملحدين وجود إله الديانات التوحيدية؟ بقولهم أن الإيمان بوجوده هو مثل الإيمان بوجود جنيات قصص

الأطفال!.. ليس للأمرين القوة نفسها أليس كذلك؟ الأول (دحض ألوهية الشمس) إثبات علمي، أما الثاني (دحض وجود خالق أعظم) فليس أكثر من سخرية يتخللها تضليل واضح يتناقض مع كلام **دوكنز** نفسه في أكثر من موضع في وهم الإله إذ يقول مثلاً في فصل "فرضية الإله" **(The God Hypothesis)** : **«كون بخالق مراقب سيكون مختلفاً جداً عن كون بلا خالق»** ثم يتساءل مستنكراً علىٰ مَن قال إنه لا يمكن للعلماء الفصل في مسألة وجود الإله فضلاً عن مجرد التعليق عليها: **«لماذا لا يعتبر ذلك أمراً علمياً؟»** و**دوكنز** هنا يؤكد أنه يمكن الاستدلال علىٰ وجود الخالق من خلال دراسة الكون الذي أوجده، إذ أن صنع خالق حكيم لن يكون كعشوائية طبيعة عمياء، ودراسة ذلك من قبل العلماء تجعلهم أهلاً للحكم في مسألة وجود الإله.. لكنه لا يلبث أن ينقلب علىٰ عقبيه بعد ذلك ويذكر مجدداً إبريق شاي **راسل** ووحش الاسباغيتي الطائر[1]، قاصداً أن القول بوجود الخالق هو مثل القول بوجود الشخصيات الخيالية التي لا يمكن أبداً إثبات وجودها! وما استفدته أنا شخصيّاً من هذه الجزئية من كتاب **دوكنز** هو أن كوناً بلا وحش اسباغيتي طائر سيكون مختلفاً تماماً عن كون بوحش. لذلك فإن مسألة وجوده من عدمه تعتبر مسألة علمية بحتة يمكن أن يفصل فيها العلم.

---

(١) وحش السباغيتي الطائر (Bobby Henderson) هو إله ديانة تهكمية تأسست في ٢٠٠٥م علىٰ يد خريج الفيزياء الأمريكي **بوبي هندرسن** وأسماها الديانة الـ **باستافاريانية** احتجاجاً علىٰ قرار وزارة التعليم في ولاية كانساس اعتماد أطروحة التصميم الذكي بديلاً عن نظرية التطور.

* إن السرّ الذي يجثم وراء ذلك كله هو أنه من الأسهل على الملحد أن يسيء إلى الأديان كلها بالقدر نفسه - مبدئيّاً - دون أي تفرقة وأن يتجاهل ذكر الإيجابيات التي قد يجدها في الدين، ولو حاول الملحدون رؤية الأديان بالمنطق الصحيح لكانت النتيجة كارثية عليهم.. لنتخيل مثلاً أن يناقش الملاحدة الأديان بالشكل التالي:

تتفوق الأديان السماوية بشكل عام والإسلام بشكل خاص على باقي الديانات عموماً والوثنية خصوصاً في صفات الإله الذي يعتقدون أنه أوجد الكون. فصفات الإله عند التوحيديين **أقرب للكمال الذي يتطلبه تصميم الكون**. ولو أنه لا يوجد دليل عند أي من الطرفين يثبت به حجته؛ إلّا أن إلهاً عظيماً في السماء أقرب - ولو بقليل- إلى أن يكون قد أوجد الكون من آلهة كثيرة على الأرض تتشكل وتتصور عبر الأزمان.

* يمكن للملحد أيضاً أن يصنف الأديان على حسب الأخطاء والتناقضات الموجودة في كل منها؛ يضاف إلى ذلك ثبوت تعاليم كل دين عبر الأزمان. ثم وضوح معالمه ومصادره. فالدين الذي يغيّره أتباعه كل فترة تغييراً جذريّاً حسب ما يشاؤون لا يوضع في مرتبة واحدة مع دين ثابت واضح المبادئ.

* طبعاً لا يوجد ملحد واحد في العالم على استعداد لأن يوقع نفسه في ذلك المأزق الذي لا مخرج منه.. ولو أن **دوكنز** أو غيره من الملحدين استخدم ذلك المنطق في المفاضلة بين الأديان لما وجد الوقت الكافي لكسب المال من مهاجمتها. ولماذا قد يضيع وقته أصلاً في البحث عن شيء اسمه

الحقيقة في حين يمكنه استخدام أرباع وأنصاف الحقائق في الحصول على المجد الزائف والشهرة والمال؟

تفكير ملحد

- لا نحتاج إلىٰ تحليلات نفسية عميقة لنرىٰ أن في الإلحاد عموماً والإلحاد الجديد علىٰ وجه الخصوص صفات وخصائص تجعله أمراً في غاية الجاذبية بالنسبة للملحدين. والمسألة واضحة للعيان من خلال تصرفاتهم.. فالعالم اليوم ينقسم إلىٰ قسمين: أتباع الديانات ومَن لا دين لهم من ملحدين ومتشككين. وإذا تخيلنا اجتماع القسمين اليوم في قاعة كبيرة فلا شك أن صوت الملحدين سيكون مختلفاً من وجه معين. ففي الوقت الذي يحاول فيه كل شخص إثبات أن طريقه هو الطريق الصحيح إلىٰ الله محاولاً في الوقت نفسه إثبات خطأ الطرق الأخرىٰ يأتي الملحد ليقول:

«بل أنتم جميعاً مخطئون.. كل واحد منكم يعتقد أن هناك رجلاً كبيراً في الفضاء هو الذي أوجد الكون بكل ما فيه وأنه مطّلع علىٰ كل شيء وأنه سيجمع الناس يوماً ما ليحاسبهم علىٰ ما فعلوه. كلكم لا تعتمدون في إيمانكم علىٰ أي دليل أنتم فقط تعتمدون علىٰ كلام بشر عاشوا في الأزمنة الغابرة ثم ماتوا تاركين وراءهم كتباً قالوا إنها من عند الإله الخالق. وعلىٰ الرغم من ذلك لم أكن أنا لأتدخل بينكم وبين (أصدقائكم التخيليين) إلا لأنكم أجبرتموني بأن حاولتم فرض تعاليم آلهتكم علي. إن الأديان نشأت في أزمنة لم يعرف فيها مؤسسوها شيئاً من المعارف الحديثة لذلك جاءت مناقضة للعلم والعقل.

كذلك الشق الأخلاقي الذي هو أصل معظم الأديان؛ ربما كان مقبولاً في الأزمنة الغابرة، لكن في العصر الحديث لا صوت يعلو علىٰ صوت الحرية كما أنه لا صوت يعلو علىٰ صوت العلم.

أنا لا أومن بشيء. العلم فقط هو ما أومن به فإن تغير فيه شيء تغير إيماني. الفرق بين إيماني وإيمان العوام هو أن العلم يتغير بأدلة قابلة للتحقيق والتجربة والتكرار.. وهذا ما تعلمته من شيوخي الملحدين. فريتشارد دوكنز مثلاً في (وهم الإله) قال إنه مستعد للتخلي عن الداروينية إذا ما ثبت بطلانها بدليل لا يقبل الشك. أما إيمان الأديان فيقوم في أساسه علىٰ تغييب العقل وتحكيم النصوص الدينية التي تتعارض مع العلم ليل نهار والتي لا يلتفت إليها المؤمن لكي لا يُغضب صديقه التخيلي.. وقد أجد العذر لمؤمني العصور القديمة الذين لم يتعلموا ولم يعرفوا سوىٰ ما تم تلقينهم إياه من خرافات الأديان؛ ولكن ما هو عذر مَن جاء بعد تشارلز داروين الذي أثبت لنا جميعاً أننا لم نوجد في هذا الكون بفعل فاعل وإنما وجدنا بـ.. حسناً.. لا أحد يعرف بالضبط كيف بدأت الحياة علىٰ الأرض؛ ولكننا نعرف أنها بدأت بسيطة جداً ثم تطورت شيئاً فشيئاً حتىٰ وصلت إلىٰ التعقيد الذي هي عليه اليوم. وهذا كله كلام علمي مدعّم بملايين [وربما مليارات أو حتىٰ تريليونات، فقد جرت العادة أن يضع كل ملحد الرقم الذي يريده دون قيد أو شرط] من الأحافير والمتحجرات.

إن الدليل الأقوىٰ علىٰ زيف الأديان هو تنوعها واختلافها وتناقضها وادعاء كل منها بأنه وحده علىٰ صواب وأن البقية علىٰ خطأ. والشخص

المؤمن في الحقيقة يتفق مع الملحد علىٰ القول بأن جميع الآلهة الموجودة في هذا العالم ما هي إلّا خرافة زائفة؛ لكن المؤمن هو من قرر أن يتقدم علىٰ الملحدين بإله واحد».. انتهىٰ كلام الملحد.

* لا شك في أن للكلام السابق بريقاً خاصاً يختلف عمّا هو موجود في الأديان كلها بما فيها الإسلام، إذ يدخل الملاحدة في النقاش مع باقي الأديان من نقطة الكفر بكل النصوص، وذلك ما يضع الملحد غالباً في موقع الهجوم؛ مما يضطر المؤمن إلىٰ أن يتخذ وضعية الدفاع عن النصوص التي يقطع بقدسيتها. ويتضح تأثير ذلك العامل الأساسي وبشكل واضح في الفئة العمرية التي تقتنع بالفكر الإلحادي أكثر من غيرها؛ والتي هي بالطبع مرحلة المراهقة وما جاوزها بقليل. والواقع أن هذا التفوق الظاهري للإلحاد بالإضافة إلىٰ استماتة الملحدين لربطه بالعلم وربط العلم به قد أكسبه تأييد الكثيرين في العالم الغربي اليوم.

- كنت قد ناقشت سابقاً بعض الشبهات التي أوردها الملحد المفترض وسأناقش الباقي في الفصول القادمة إن شاء الله. لكني سأختم هذا الفصل بأن أعلق علىٰ الجزء الأخير من كلام الملحد المفترض، وهي المقولة التي يستخدمها بعض الملاحدة في وصفهم للمؤمن بأنه ملحد مثلهم بكل الآلهة؛ جميع الآلهة ما عدا إلهه هو.. والإشارة هنا بالطبع هي إلىٰ قرب الإيمان التوحيدي من الإلحاد الذي لا يفصله عنه إلا إله واحد من أصل ملايين الآلهة في هذا العالم. والحقيقة طبعاً هي أنه ليس لتلك العبارة أي معنىً، لأنها تماثل قولنا عن شخص ما إنه أبكم لا يستطيع الكلام بأي لغة في العالم ما عدا

لغته هو.. كما أن من البدهيات التي لا تحتاج إلىٰ شرح [أو هكذا كنت أظـن] أن المؤمن الموحد ليس بأقرب للإلحاد من الوثني الذي يؤمن بآلهة كثيرة، إذ إن قلـة عـدد الآلهـة لا تعنـي سـهولة تركهـا، كمـا أن كثرتهـا لا تعنـي أن تركهـا يتطلب وقتـًا أو جهداً مضاعفـًا! المسألة سخيفة بالطبع ولكن الحقيقة هـي أن إلحاد الإنترنت اليوم يقوم في معظمه علىٰ ترديد سخافات من هذا النوع.

***

أخلاق لا دينية

لنبدأ كالعادة برأس الإلحاد المعاصر. في مقابلة علىٰ قناة (CBC News) الكندية[1]، كرر ريتشارد دوكنز ما يقوله دومـًا في كتاباته عن مصدر الأخلاق بعد أن سُئل عن سبب ميل البشر إلىٰ فعل الخير وإسداء المعروف للغرباء. حيث بدأ دوكنز إجابته بأن قال إنه قد خصص فصلاً أو اثنين في وهم الإله لهذا الموضوع بالذات. ثم أردف أنه ليس من الصعب علىٰ الداروينية أن تفسر لماذا قد يصنع الإنسان معروفـًا لأشخاص معينين مثل الأقارب والأشخاص الذين يغلب علىٰ الظن أنه سيتم التلاقي معهم مراراً في المستقبل، فيكون بذلك احتمال ردهم للمعروف وارداً. ذلك لأن البشر تطوروا - حسب ما يعتقد دوكنز بالطبع - في مجموعات صغيرة في البرية، لذلك فإن جميع مَن يلتقي بهم الفرد في ذلك الزمان تقريبـًا كانوا من الأقارب والمعارف، وهذا الأمر (تبادل المساعدة) هو أمر شائع ومشاهد في عدة أمثلة عبر المملكة الحيوانية.

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=-NSk_ZeAH_I

يقول دوكنز «الصعوبة تأتي في شرح ميلنا إلىٰ مساعدة الغرباء.. أعتقد أن الشرح الداروينى الصحيح لذلك هو أنه نوع من الإخفاق أو إخطاء الهدف» (Misfiring)!

مختصر ما يريد دوكنز شرحه هو أن الميل لمساعدة الآخرين بدأ في القديم في مجتمعات بدائية صغيرة، ولما تطور البشر وصاروا يعيشون في مجتمعات ضخمة وصار الغالب علىٰ الظن أن الشخص الذي تقابله في مكان عام لن تعود لتقابله مجدداً؛ بقي ذلك الخطأ الداروينى "الثمين المبارك" كما وصفه في كتابه. وبكلمات أخرىٰ كان البشر يحتاجون إليها في مرحلة من مراحل التطور؛ ولما انتهت المرحلة بقيت الخصلة ملتصقة بهم. وبذلك تكون "خصلة حميدة" ظهرت عن طريق الخطأ. والعجيب أن دوكنز أشار في كتابه وهم الإله وفي المقابلة ذاتها إلىٰ أن هذا الإخفاق الداروينى يماثله إخفاق آخر وهو الشعور بالرغبة الجنسية. فأصل هذه الرغبة حسب رأيه هو إدراك الزوجين أن الأطفال سيأتون نتيجة لتلك العملية؛ والتناسل بالطبع من صميم ما أنتجته الداروينية كما يقول. واليوم وعلىٰ الرغم من أن أحد الزوجين أو كليهما قد لا يكون قادراً علىٰ الإنجاب إما لعقم أو لاستعمال موانع حمل أو غير ذلك إلا أن الرغبة الجنسية لا تختفي عندهما رغم علمهما أنهما لن ينجبا أطفالاً من تلك العملية، لكن.. أليس من الأسهل والأقرب داروينيّاً تفسير الرغبة الجنسية بالتفسير الداروينى الموحد مثل سائر الأعضاء والعمليات المتطورة؛ بأن الكائن الذي امتلك الجين المسؤول عن تلك الرغبة كان أكثر ميلاً للتزاوج وبالتالي أصبح أكثر نسلاً؟ لماذا عطّل

تفسير "الدراونة" الموحد في هذا الموضع بالذات؟

علىٰ خلاف الكتاب فقد كان في تلك المقابلة مَن يستوضح الصورة أكثر وهو المذيع الذي سأل دوكنز: **«هل يمكن القول إن استخدام هذا التحليل - تحليل أصل الرغبة الجنسية- لا يعد تناسقاً في النظرية الداروينية بقدر ما هو فشل في شرح ميل الإنسان لفعل الخير»؟** فأجاب دوكنز بنعم، ثم حاول الاستدراك بكارثة مفادها أنه قصد أن تطوريته الداروينية عجزت عن التفريق بين ما يجب أن يبقىٰ وما يجب أن يزول!

إن تطورية دوكنز هي عملية تمقت الإسراف بشدة كما قال في كتاب "صانع الساعات الأعمىٰ" (**The Blind Watchmaker**)، لذلك نجدها في غاية الصرامة في تعاملها مع جميع الأعضاء والسلوكيات الحية، فتدفع ما لا يتقيد بشروطها مباشرة إلىٰ الفناء والزوال، في الوقت الذي تُبقي فيه وتُطوّر مَن أطاعها. لكنها تساهلت فجأة - وبدون سبب أو علة - مع كل من: فعل الخير، والدين، والرغبة الجنسية دون توقع الإنجاب، وأمور أخرىٰ كثيرة سأورد بعضها لاحقاً.

يمكن إيضاح الإشكال بطرح السؤال ثم الإجابة عليه كما يلي: - لماذا أبقت الداروينية علىٰ السلوك المتمثل في تقديم المساعدة للغرباء بعد أن انتهت فائدته وأصبح عديم المنفعة للفرد الأناني؟ - الجواب: كان لذلك السلوك فائدة في السابق ثم انتهت ولكنه بقي علىٰ أي حال - نعم ذكرنا ذلك ولكن المهم لماذا بقي؟! - الجواب:...؟؟

إن أول ما يخطر علىٰ البال هو أن في الأمر سراً خفياً، لأن دوكنز ذكر

هذا الأمر الغريب في كتابه ثم أعاد ذكره في أكثر من مقابلة.

الحقيقة أن دوكنز كان ولا زال يعي ما يقول تماماً. هو يعلم أن السكوت أو الإجابة بلا أعرف ليسا في مصلحته؛ وأن كل ما عليه فعله هو النطق بأي شيء؛ أيّاً كان وسينال ثناء واستحسان مُعجبيه بكل الأحوال. فهل إذاً يختار أن يقول كلاماً فارغاً مثل الذي قاله ثم ينال الإعجاب كما حدث؟ أم يختار الصمت؟ ماذا وقد سنحت له الفرصة أن يرفع من أسهمه علىٰ حساب العقل المنطق؟ ألم يختر ويُحسن الاختيار؟

غرق كراوس في وحل الرذائل

بما أن حديثنا هو عن الأخلاق؛ رأيت أن أسلط الضوء علىٰ زاوية لا تتم مناقشتها بشكل كاف مع الملحدين ولأسباب متعددة، لعل بعضها سيتضح بعد المناقشة..

فلنتخيل عائلة مكونة من والدين وابن وابنة جميع أفرادها من الملحدين. تربىٰ فيها الشاب والفتاة علىٰ قيم الحرية التامة وعلىٰ إخضاع أي مسألة لميزان العقل فقط دون غيره [كما هي عادة الملاحدة في التعاطي مع أي مسألة تواجههم] ماذا لو نشأت علاقة جنسية بين الشاب والفتاة - عياذاً بالله- في تلك العائلة؟ ما الذي يمكن للوالدين فعله لإيقافها؟ هذا في حال لم يوافقا علىٰ تلك العلاقة بالطبع، كيف يمكن إقناع الابنين بالعقل وحده بأن هذا الفعل غير صحيح؟

في الجزء المسمىٰ بـ (أخلاقيات روح العصر) من وهم إله دوكنز[1]: ذكر عدة أفعال (جيدة) نشترك فيها جميعاً ومنها أننا: لا نغش ولا نقتل ولا نقع في محارمنا.

وقد كان دوكنز قبل ذلك قد انتقد القصة المريعة والمفتراة علىٰ نبي الله لوط ﷺ والموجودة في سفر التكوين في العهد القديم من الكتاب المقدس للنصارىٰ. تلك القصة التي تفتري أن ابنتي نبي الله لوط قد سقتاه خمراً دون أن يعلم حتىٰ فقد وعيه، ثم واقعته الابنة الأولىٰ في اليوم الأول وحملت منه، وفعلت البنت الصغرىٰ الأمر ذاته في اليوم التالي.

العجيب أن ريتشارد دوكنز انتقد العائلة بأكملها علىٰ ذلك الفعل! إذا غض الملحد النظر عن إقدام الفتاتين علىٰ تخدير والدهما دون علمه؛ فما الخطأ الذي وقع هناك؟ هل يرىٰ الملحد أن لو وقع الأمر بالتراضي سيكون خاطئاً أيضاً؟ وعلىٰ أي أساس؟

* كثير من ملاحدة الغرب يُصرح بأن لا أساس منطقياً لمنع سفاح الأقارب والميل الجنسي نحو جثث الموتىٰ ونحوها من ممارسات لا يتم فيها التعدي علىٰ الآخرين. وطبعاً هم وصلوا إلىٰ هذه المرحلة بعد أن تجاوزوا مسألة الشذوذ الجنسي وصاروا يناقشون ما هو أبعد من ذلك كالعلاقة مع الحيوانات مثلاً. فيما لا يزال الوضع غير ملائم للملاحدة في الشرق لأن يصرحوا بمثل ذلك.

---

(1) Chapter 7 The 'Good' Book and the changing moral Zeitgeist

* لورانس كراوس صاحب الأعاجيب الفيزيائية السابق الذكر أجاب صراحة على سؤال وجهه إليه حمزة تزورتزس[1] (جورجيوس)[2]: «لماذا يُعتبر سفاح القربى أمراً خاطئاً»؟.. فأجاب بأن قال: «ليس واضحاً بالنسبة إليّ أنه أمر خاطئ»! وحين علت أصوات الاستهجان في القاعة وتغير وجه مَن كان يدير المناظرة وكاد بعض الحضور يُخرج ما في معدته من تلك الإجابة، حاول كراوس أن يستدرك الأمر بهذا الإبداع: «معظم المجتمعات لديها محظورات فيما يخص زنى المحارم وذلك أمر تجريبي، فعامة ينتج عن سفاح القربى تشوهات جينية. لذلك توجد بشكل عام أسباب فسيولوجية واجتماعية تحظر سفاح القربى.. [ثم أضاف بتردد واضح جدّاً يصل لحد الارتباك]: لكن إن سألتني السؤال.. هل.. وهذا سؤال مثير للاهتمام.. نحن.. بالمناسبة.. متأصل.. هناك محاذير متأصلة في داخل كل المجتمعات في ما يخص سفاح القربى لذلك السبب.. لأن المجتمعات تريد أن تستمر.. لذلك هو مفيد.. لكن إن سألتني بداهة.. على سبيل المثال.. السؤال.. [هنا لا ألوم الحضور إن كان بعضهم قد غفا قليلاً من شدة إطالة كراوس ومماطلته].. إذا.. أخ وأخت أحبا

(١) حمزة أندرياس تزورتزس (Hamza Andreas Tzortzis) هو داعية شاب بريطاني مسلم كاتب ومتحدث ومناظر في الفكر الإسلامي، وباحث ومحاضر بالأكاديمية العالمية للدراسات والبحوث الإسلامية (iERA) وفي عدة مؤسسات إسلامية أخرى.

(٢) في المناظرة التي أجريت بينهما في ٢٠١٣م في بعنوان: الإسلام أم الإلحاد – أيهما أكثر عقلانية؟ -Islam or Atheism - Which Makes More Sense? - disgraceful anti-egalitarian exhibition of Muslim misogyny
https://www.youtube.com/watch?v=uSwJuOPG4FI

بعضهما بعضاً واستخدما الواقيات الطبية [وهنا عادت أصوات الاستهجان بشكل خافت مما دفع كراوس إلىٰ إكمال جملته بسرعة وبصوت أعلىٰ]: هل هناك أمر لا أخلاقي بشكل مطلق في ذلك؟.. أنا.. أنا.. ثم.. بالمناسبة حدث ذلك مرة واحدة ثم افترقا ولم يتأثر أي أحد بما فعلاه؛ أنا قد أفكر في الأمر لأني لا أعتقد أن ذلك مُدان بشكل مطلق.. إذا أحبا بعضهما بعضاً واهتم كل منهما لأمر الآخر ثم مضىٰ كل منهما في حال سبيله ولم يتأثر شيء آخر بفعلهما.. أنا.. أنا.. هل أنصح بذلك الفعل؟ لا!.. ولكن هل أكون راضياً عنه؟ هل أكون مستعدّاً للاستماع إلىٰ تلك الحُجج إذا كانت منطقية؟.. ربما». انتهىٰ تخبطه قاتله الله!

* إذا غضضنا الطرف قليلاً عن مقتضيات كلامه المثير للغثيان؛ فسنلمس في طريقة كراوس رغبة كبيرة في أن يجد سبباً منطقيّاً يُحرم زنىٰ المحارم دون إدخال الدين في المسألة، ولكن الفكر المادي الإلحادي يخذل صاحبه مجدداً هنا.

* [لا سبب منطقيّاً يمنع ذلك].. لكن ملحدي العرب تحديداً يحاولون دفع تلك الحقيقة تارة بالهجوم علىٰ السائل قائلين: تعني أنه لولا إيمانك بالله لكنت قد وقعت في ابنتك أو أمك؟.. وتارة أخرىٰ بنفي الأمر كليّة وبدون تقديم أي سبب أو حُجة منطقية كما فعل دوكنز.

* في نظري يمكن حسم هذا الأمر بهذا التحدي الصغير...

يستحيل علىٰ أي ملحد في المشرق [لأن الإلحاد في العالم الغربي عامة لا يمانع سفاح الأقارب مطلقاً كما رأينا لأنه بزعمهم حرية شخصية]

يستحيل عليه أن يستخدم العقل والمنطق وحدهما لإيجاد سبب مقنع بأن زنىٰ المحارم أمر يجب تجنبه.. ولا يمكن لأي ملحد أن يجد سبباً أقوىٰ ولا أفضل من السبب الذي سأذكره الآن.

في مثال العائلة الملحدة لا يمكن للوالدين إيجاد سبب مقنع لإيقاف العلاقة (المقززة) بين الابن والابنة إلّا أن يقولا: إننا نعيش في عالم يغلب عليه التدين. ومثل هذا الفعل - الذي هو من حقّكما في الأصل - قد يكون بمثابة صب الزيت علىٰ النار. لأن العالم يتخوف من الإلحاد لأسباب أقل من هذا بكثير. فلماذا نعطي المتدينين هذا السلاح لكي يهاجموننا به؟ الأفضل أن ننتظر حتىٰ يصبح العالم مكاناً أكثر تسامحاً وانفتاحاً حتىٰ نطالب فيه بالحرية الكاملة. ولا يمكن القفز لتحقيق أمر كهذا في الوقت الذي لا يقبل فيه معظم البشر زواج المثليين.

ولم لا؟

- لا أتوقع مجرد توقع أن العالم سيسلك طريق الرذيلة ويصل إلىٰ درجة الإباحية البهيمية، بل أعلم يقيناً أنه قدره المحتوم وسيصل إليه طال الزمان أم قصر.

يستهزئ الملحدون (كهيتشنز) بقولهم: **يعتقد المتدين أنه لولا الإله لمارس الناس الجنس في الطرقات والشوارع**. والحقيقة أن هذا الأمر بالذات أمر لا مفر منه وقد أخبرنا رسول الله أنه واقع لا محالة. والأمر ليس بتلك الصعوبة التي قد يظنها المرء فأفكار الملاحدة اليوم تدعم ذلك بشدة. ثم إن

البداية قد تكون من مدينة واحدة أو حتىٰ قرية صغيرة - وأرجّح أن تكون أوروبية ربما من الدول الاسكندنافية - يرفع فيها زوجان قضية علىٰ المدينة مدّعين أن بها قوانين تحد من حريتهما الشخصية، وأنها لا تسمح لكل منهما أن يعبر لشريكه عن شعوره كيفما شاء وقتما شاء.

هراء؟ صحيح.. ولكن توجد دوافع لتطبيق قوانين أسخف من هذه في أوروبا والغرب. واللافت هو أنه ما أن يطرح برلمان أوروبي واحد أمراً كهذا للتصويت حتىٰ تتبعه عدة برلمانات أخرىٰ علىٰ امتداد القارة؛ وكأنها عدوىٰ الهراء!

* من وجهة نظر الإلحاديين لا يوجد سبب لأن يتدخل شخص ما في حرية شخص آخر خصوصاً في مسألة اللباس. فأسلاف البشر (داروينيًا) عاشوا بدون ملابس لأن الشعر كان يغطي أجسادهم. ولما انحسر الشعر عنهم - لأسباب مجهولة داروينيًا - فرض البشر علىٰ أنفسهم غطاءً بديلاً يمكن تفسير وجوده في الأجواء الباردة وما شابه. أما ما حدث لاحقاً من إعطاء الأهمية - المبالغ فيها من وجهة نظرهم- لارتداء الملابس فإن أصابع الاتهام في ذلك تتجه وبشكل طبيعي نحو الدين.

* يمكننا أن نتخيل الزوجين الأوروبيين في المحكمة وهما يطالبان - بعينين دامعتين - بأن يساوي القانون بينهما وبين أسلافهما من الحيوانات.. وقد لا يتحقق هذا من المحاولة الأولىٰ. لكن أعتقد أن أول مدينة ستحكم لمصلحة المدعيين سيكون لها (شرف) إرجاع الحرية الكاملة للجنس البشري وعدم استخدام القانون لتقييد تلك الحرية.

يا شرير كن جيدا وإلا ..

- إن حل الشق الثاني من أحجية الأخلاق مع الملحدين يحتاج فقط إلىٰ ملاحظة بسيطة يمكن بعدها حل إشكالية طال الجدل حولها، ويمكن شرحها بالافتراض التالي:

تخيل أن ملحداً ثريّاً قابل مؤمناً فقيراً مشرداً يجلس علىٰ أحد الأرصفة، ولسبب ما دار بينهما حوار عرف من خلاله الملحد الثري أن إيمان ذلك المشرد هو ما يعطيه الدافع لتحمّل ما هو فيه من فقر وحاجة. وبما أن الملاحدة يزعمون علىٰ الدوام أن اهتمامهم ينصب علىٰ الحقيقة ولا شيء غيرها، فقد استغل الملحد قلة وضعف عِلم ذلك الشقي وقضىٰ علىٰ إيمانه بالضربة القاضية فصار لادينياً مادياً ملحداً مثله.

عندها وقف المتشرد وهمّ بالانصراف، وحينما سأله الملحد إلىٰ أين.. أجاب ببساطة: أعتقد أن بإمكاني أن أسطو علىٰ الشركة التي كنت أعمل بها وأن أنجو بفعلتي..

وقف الملحد عندها محاولاً ثني الملحد الجديد عن عزمه مستخدماً جميع الأسلحة (الحُجج) التي يستخدمها الملاحدة في هذا النوع من النقاشات. والتي أشهرها وأقواها لديهم:

- ما اقتبسه دوكنز عن مايكل شيرمر (Shermer Michael) في وهم الإله حينما قال: «**إذا كنت توافق علىٰ أنك في حال عدم وجود إله فإنك قد تسرق وتغتصب وتقتل، فإنك شخص لا أخلاقي وعلينا أن نحذر منك**».
- تشير الكثير من الدراسات إلىٰ أن الملحدين لا يختلفون كثيراً عن

المؤمنين في التفريق بين الخير والشر. ومن ذلك دراسة **سينجر وهاسر (Hauser و[1]Singer)** التي استنتج القائمون عليها أن الإحساس بما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي ينبع من داخل المؤمن وغير المؤمن بالدرجة نفسها. فما فائدة الإيمان إذاً؟

• تشير الإحصاءات إلىٰ أن الكثير من الدول والمجتمعات التي تنتشر فيها المادية والإلحاد، كالسويد واليابان والدانمرك تقل فيها نسبة الجرائم وينتشر فيها الوعي والثقافة. فيما ينتشر الإيمان بين نزلاء السجون في العالم في مقابل عدد قليل من المساجين الملحدين.

• يقول **ريتشارد دوكنز** والملحدون معه: لا يمكن لشخص أن يقوم بعمل شرير بسبب الإلحاد، فعدم الإيمان بشيء لا يدفع إلىٰ فعل الشر كما تفعل النصوص المقدسة.

• وأخيراً، إذا كنت لا تقوم بأي عمل شرير خوفاً من كاميرات المراقبة في السماء فإنك مجرد منافق. لذلك.. حتىٰ وإن لم يكن هناك إله.. فقط كن جيداً وحسب!

الفقرة الأخيرة هي المفضلة عندي: **(كن جيداً فحسب)**.. ويشابهها قول **ريتشارد دوكنز** في بداية كتاب "الجين الأناني" **(The Selfish Gene)**: **«فلنحاول تعليم الكرم والإيثار لأننا ولدنا أنانيين»**.. والكثير من الملحدين يستخدمونها دون أن يدركوا أنه ليس بإمكانهم أن يُنصّبوا أنفسهم مكان الإله

(1) Morality without Religion - Author: Marc Hauser, Peter Singer - Cited by: Austin Samuel.

الذي يحاولون تخليص البشرية من الإيمان به. فالإله؛ والإله وحده هو المخوّل بأن يأمر دون حاجة إلىٰ مبرر أو تفسير لذلك الأمر.. فقط افعل وأنت تثق في كمال حكمته.

- في مثالنا عن المتشرد وصاحبه يمكننا أن نوضح ما شرحه الملحد الثري بما يلي: لا مانع لدي في أن تواسي نفسك بأن توهمها أن ليست حياتك البائسة هي كل شيء، وأنك ستكافأ بعد الموت علىٰ عدم ارتكابك للشرور في هذه الحياة، وأن لا خيار أمامك إلا الرضا بالقدر. المشكلة هي أنني أهتم بما هو صحيح فقط ولا شيء غير ذلك.

لقد أثبتُّ لك أن الكون وُجد من تلقاء نفسه. وأن الحياة نشأت بالكيفية نفسها. وأنه لا يوجد في الكون إلا ما يمكن رؤيته أو الإحساس بوجوده. فهو كون مادي، المادة هي أهم ما فيه. صحيح أن لمشاعر الإنسان وما يحسّه أهمية معينة، ولكنها أهمية نابعة من المادة وتابعة لها.. والحقيقة أنني رأيت أن أخبرك بالحقيقة كي تقرر ما ستفعله في حياتك علىٰ علم كامل بالحقائق التي جرّدتها لك من الأساطير التي خلطتها أنت بها. وحينما يقرر المتشرد (الملحد الجديد) سرقة مكان عمله السابق ليتحصل علىٰ أهم ما في الوجود (المادة أو المال) يوقفه الثري الملحد قائلاً: **لا.. أنا لم أقل ذلك.. كن جيداً!**

المنطق رقم واحد يقول: **علىٰ الفرد أن يحصل علىٰ أكبر قدر من المادة خلال حياته.** المنطق رقم اثنين يقول: **إن تعليم المنطق رقم واحد لفقير معدم قد يجعله يقرر سرقة منازلنا خصوصاً بعد تلاشي خوفه من العقاب الأخروي. مما يستدعي التدليس..** وذلك عن طريق إضافة جملة لا أصل لها ولا مبرر

حسب الشرح الأصلي للنظرية الإلحادية إن جاز التعبير؛ وهي جملة: **ولكن كن جيداً.**

الحقيقة أن الأمر ليس عديم المنطق من كل الأوجه. بل إنه ربع منطقي، لأن المقصود من إضافة تلك العبارة هو تجنب غضب مجتمعي محتم من ذلك المنطق الكارثي. المشكلة فقط هي أنه منطق لا يراه إلّا الغني الذي لديه ممتلكات يخشىٰ فقدانها. أما من وجهة نظر الفقراء (وهم الأكثرية) فهو هراء محض دون شك.

* في النقاش العقلي المادة هي أهم ما في الوجود وهي كل ما فيه.. بالإضافة إلىٰ حقائق التفكير الإلحادي الأخرىٰ من عدم وجود خالق ولا حساب ولا حياة آخرة ولا أي شيء آخر من ذلك القبيل.. ولكن حينما يصل الأمر إلىٰ مسألة الأخلاق فإن النقاش يتحول إلىٰ ما يشبه الخطابة أو حتىٰ الوعظ.. إذ أن المطلوب من الجميع (بمَن فيهم الفقراء والمُعدمون) أن لا يتجاوزوا خطوطاً معينة يمكن تسميتها بالأخلاق العامة كما يُفتي شيخ الملحدين البروفيسور دوكنز في سبيل الحصول علىٰ المادة.

لا شيء يبين الخلل في هذا الفكر أكثر من وضع الأمرين علىٰ ميزان المنطق. ففي كون مادي بحت لا يمكنك أن تقنع شخصاً ماديّاً ملحداً بأن لا يسرق إن لم تكن فائدة عدم السرقة بالنسبة إليه تكافئ المال الذي كان يمكن أن يحصل عليه. حتىٰ ولو كانت الفائدة هي عدم دخول السجن. لكن ما قيمة أن تقول لإنسان مادي لاديني «**لا تسرق ملايين الدولارات وتتحول من فقير إلىٰ غني، ولو فعلت ذلك فستكون شخصاً شريراً وعلينا أن نحتاط منك**»؟

يا لها من عقوبة رادعة وعاقبة مخيفة أليس كذلك؟

تخيل لو أن جوزيف ستالين عاد إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ، وكانت لديه القدرة علىٰ أن يكرر كل ما فعله مرة ثانية.. أن يتحصل علىٰ كل الأموال والقوة والسلطة التي تمتع بها في حياته، فهل من المنطق أن يقول: لم أكن أعلم أن الناس سيكرهونني لهذه الدرجة! من الأفضل أن أعيش فقيراً وبلا سُلطة هذه المرة؟ هل يحاول الملحدون تعليمنا أننا نعيش في كون مادي ليس فيه إلا المادة المحسوسة والتي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد حب الناس؟! ألم تعُد هذه الفكرة بالية حتىٰ بالنسبة لأفلام السينما؟ هذا إن كانت قد استُخدمت أصلاً في شيء غير سفسطات الملحدين.

* لا يقف الإلحاد موقفـاً سلبيّاً فقط (كعادته) أمام الأفعال المتطرفة مثل جرائم النازية أو الشيوعية، بل إنه يغذيها ويبرر أهدافها المادية. ولذلك يقف الإلحاد (من باب أولىٰ) مع طغاة الرأسمالية في استعبادهم (القانوني) للطبقات؛ بل والشعوب الفقيرة باسم حرية التجارة. ولهذا فإن الحذر من الإلحاد والمادية البحتة يجب أن لا يقتصر علىٰ الأشكال المتطرفة منه فقط، فالقليل من أفكاره قد يؤدي بنا إلىٰ عالم مثل الذي نراه اليوم.

- يرىٰ الملحد ضعفاً وقلة منطق في اعتقاد المؤمن بأن كثرة أتباع الأديان في مقابل قلة أعداد الملحدين تدل علىٰ أن التدين هو الأصل وأنه الأكثر منطقية. لكن حينما يقول الملحد إن غالبية ملحدي العالم يتصرفون بطريقة أخلاقية (ولو ناقضت الأصل والأساس الذي يقوم عليه الإلحاد المادي) يتغير الأمر مباشرة ويبرز المنطق الجديد الذي ينص علىٰ أن العدد

هو عنصر الحسم.

- يمكن القول أن النقطة الأساسية التي يحاول بها الملحد خداع نفسه والآخرين هي أنه يصور إلحاده علىٰ أنه ورقة بيضاء خالية من النصوص المقدسة ومن كل شيء. ثم يقوم هو بكتابة ما شاء من القناعات والأخلاقيات حسب تصوره ودون أدنىٰ قيد. وهو يرىٰ أن ذلك أفضل بكثير من البداية علىٰ صفحة مليئة بالأوامر والنصوص المقدسة التي قد لا تتوافق مع روح العصر... فما عيب ذلك؟

يكمن الخطأ الهائل في أن صفحة الملحد ليست بيضاء ولا خالية علىٰ الإطلاق. بل هي مليئة بقناعات واعتقادات عن الكون والحياة والأخلاق وغير ذلك. وتلك القناعات تنطبع علىٰ ورقة الملحد بمجرد اقتناعه بالفكر الإلحادي وليس لديه أدنىٰ خيار في تغيير ذلك. فلا خيار للملحد مثلاً سوىٰ أن يكون ماديّا، لأن جميع الملاحدة متفقون علىٰ أن الكون مادي بحت، كل ما فيه إما مادة أو طاقة. لذلك لا تجد ملحداً واحداً يؤمن بشيء من خوارق الطبيعة. قطعاً صفحة الملحد ليست بيضاء المشكلة فقط هي أن الملحد عادة ما يجلس علىٰ الجزء الذي يحوي تلك القناعات فلا يرىٰ إلا الجزء الناصع البياض من الورقة وهو في الحقيقة كلّ ما يرغب في رؤيته. لذلك فإن الملحد يناقض إلحاده (جاهلاً) بمجرد أن يعطي مالاً لفقير دون أن ينتظر منه أن يرده مستقبلاً، هذا إن لم يكن الملحد بحاجة ذلك المال ناهيك عن أن يتبرع به وهو محتاج إليه كما يفعل الكثير من المؤمنين. لأن منطق الإلحاد يحرم التفريط في المال إلا مقابل منفعة مكافئة.

* تفسير ريتشارد دوكنز لهذه الأمور مضحك متناقض. إذ يقول أن الإحسان إلىٰ الغرباء هو خطأ دارويني محمود وأما البقاء للأصلح هو أصل دارويني مذموم، ونحن علينا أن نتخلص من ذلك (الأصل) ونحافظ علىٰ هذا (الخطأ) ثم نكمل حياتنا!

مرة أخرىٰ؛ أوامر إلهية.. فالنظرية تقول كذا، ولكن غيّر فيها هذا وذاك، ولا تهتم إن كان ذلك التعديل يتعارض مع أصول وثوابت النظرية التي شرحناها لك في البداية.. ورغم كل ذلك عليك أن تتيقن أن النظرية صحيحة تماماً وتشرح كل شيء في الحياة!

* إن الحالة المنطقية الوحيدة التي يمكن أن يتبرع فيها الملحد بالمال هي أن تكون هناك فائدة بالحجم ذاته تعود عليه من ذلك. والمثال الأوضح علىٰ ذلك هو تبرعات المشاهير في الدول الغربية. ففي أمريكا مثلاً توجد قوائم يتم نشرها في نهاية كل عام بأسماء المشاهير الذين تبرعوا للجمعيات الخيرية. وهي تذكر أسماءهم مرتبة حسب المبالغ التي دفعوها، وهذا بالضبط ما أتحدث عنه.. المنفعة العائدة، الظاهر هنا هو التبرع الخيري بالمال. أما الظاهر الذي يُفترض به أن يكون خفيا فهو شراء السمعة.

* إذا قال ملحد: أنا أتبرع بالمال وأساعد غيري دون أن يدري بذلك أحد. أقول له: قم من مكانك وانظر إلىٰ الجزء الذي تخفيه تحتك.

لا شيء يفوق أهمية المادة في الفكر الإلحادي. والملحد الذي يحب التبرع بالأموال دون مقابل من أي نوع لا يختلف بأي شكل من الأشكال عمّن يؤمن مثلاً بدين يدعو إلىٰ قتل جميع البشر وهو شخصيّاً لا يستطيع قتل

أصغر الكائنات. أقول الكلام ذاته للاثنين: إذا كانت تلك هي أخلاقك حقّاً؛ فعليك أن تتخلىٰ عن دينك.

- إذا اقتنع شخص ما بأن لا إله في الكون وأن الحياة كلها مادة، فإن همّه الوحيد يجب أن يكون القانون البشري. فلو استطاع شخص - بريطاني مثلاً - سرقة ملايين الجنيهات الإسترلينية - من قطار لنقل الأموال مثلاً- ثم استطاع الهرب إلىٰ دولة ليس بينها وبين بريطانيا اتفاقية تبادل مطلوبين - البرازيل مثلاً - وعاش هناك حياة الأثرياء (وهو ما فعله اللص الشهير روني بيغز Ronnie Biggs)؛ فلا شك أن ذلك هو التصرف المنطقي والصحيح إذا كان الشخص مادياً، فكراهية البعض له لا تساوي علىٰ الإطلاق الثمن الباهظ الذي سيدفعه إن قرر أن "يبقىٰ جيداً" ويموت فقيراً.

أما مَن لا يؤمن بذلك من الملحدين فإما أن يكون من غير المحتاجين الذين لا حاجة لهم إلىٰ التفكير أصلاً في التعدي علىٰ أملاك الآخرين. أو أنه من الفريق الآخر وهو الملحدون المتصلبون. وهؤلاء ينعتون المؤمنين بكافة الأوصاف التي تدل علىٰ العناد وعدم التفكير. فيما يزعمون أنهم وحدهم من بين البشر من لا يتعصبون لشيء لا يدعمه المنطق لمجرد أنه تم تلقينهم إياه. ولكن - وللغرابة - لا يصادف أن يختلف ملحدان منهم علىٰ أن الإلحاد لا يأتي إلا بخير! فإن أقدم الشيوعيون الملاحدة (الذين كانوا بالملايين) علىٰ قتل ملايين البشر فذلك لأنهم أشرار صادف أن يكونوا ملحدين. حتىٰ وإن قالوا إنهم فعلوا ذلك لتخليص العالم من الدين؛ يظل الإلحاد منزّهاً عمّا فعلوه. وفي المقابل إذا قالت دراسة ما إن نسبة الملحدين

بين المثقفين والعلماء في مكان ما أكبر من نسبة المؤمنين فإن السبب الطبيعي والواضح في ذلك هو أن الإلحاد يدعو إلىٰ تحرير العقل والتفكير العقلي المنطقي وإلىٰ التساؤل والتعلم و.. إلخ.

- لو قال مؤمن لملحد: إن ٦٠٪ من تمسكي بديني سببه الإيمان بصحته والـ ٤٠٪ الباقية سببها المنفعة المادية التي تأتيني من ورائه إذ أن انتمائي لذلك الدين يجلب لي ولجماعتي قوة ومكانة لن أحصلها بأي طريق آخر.. فما المنطق الذي يمكن للملحد أن يستخدمه لإقناع هذا الـ (نصف مؤمن) المادي بخطأ فكرة تمسكه بدينه؟ هل يقلل من شأن المنفعة المادية ويركز علىٰ أن لا شيء أهم من الحقيقة طالباً من المؤمن التخلي عن دينه فقط من أجلها؟ ألن يكون ذلك الكلام أكثر إقناعاً لو كان صادراً من شخص لا يعتقد بأن المادة هي كلّ ما في الكون؟

الشيوعية مطب آخر

- في معظم المقابلات التلفزيونية التي أجراها ريتشارد **دوكنز** (إن لم يكن جميعها) امتعض وبشكل مبالغ فيه أحياناً[1] من مجرد طرح السؤال القائل: كيف يقال عن الدين إنه سبب أساسي في الحروب والدمار، في حين تسبب الإلحاد في أن تشهد البشرية أحلك سنواتها دموية زمن الحرب العالمية الثانية وما بعدها، والفضل في ذلك يعود طبعاً إلىٰ هتلر وماو وستالين وزمرتهم؟

(1) https://www.youtube.com/watch?v=PSjly-V-cLU

وجهة نظر الملحدين بصورة عامة وريتشارد دوكنز وكريستوفر هيتشنز بصورة خاصة أوردها هنا في الفقرات التالية مع الاختصار بقدر الإمكان..

* كثيراً ما أجاب هيتشنز علىٰ سؤال الستالينية - كما في مقابلته مع بيتر روبنسون (Peter Robinson)- بقوله[1]: **إذا كنت أنت جوزيف ستالين؛ ووصلت إلىٰ سدة الحكم في روسيا بعد قرون من فرض التعاليم الغريبة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية التي تقول إن قيصر روسيا لا بد وأن يكون شيئاً أرفع من مقام الإنسان العادي، فإنه لا ينبغي لك أصلاً أن تمارس الدكتاتورية والاستبداد إن لم تستغل تلك الظروف أسوأ استغلال.**

ثم يتبع هذا القول بمقولة مثيرة للاهتمام وهي: «**كي تقنعني أن الإلحاد قد يكون مصدراً للشر؛ أريدك أن تأتيني بمجتمع تبنّىٰ أفكار لوكريتيوس، سبينوزا، جاليليو، توماس جيفرسون والآخرين.. ثم خرج منه أشرار أمثال ماو أو ستالين**».

والمعنىٰ: عليك بإلحاد هؤلاء فهو الإلحاد الحق، ودعك من المارقين الخارجين عن ملة الإلحاد القويمة من الشيوعيين ومَن شاكلهم أو النازيين ومن عاونهم.

ولما سأل روبنسون هيتشنز عن الكنيسة الروسية التي كان قد ذكرها قائلا: **ذلك منحدر زلِق؛ أنت لا تقول إن ما فعله ستالين.. كان سببه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية؟** أجاب هتشنز: **الكنيسة الروسية كانت تقف في صفه..**

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=WwGkTA7Spls

فقال روبنسون مقاطعـاً: **هل حقاً تحاول أن تلوم الديانة المسيحية علىٰ جرائم جوزيف ستالين؟!** هنا قال هتشنز: **لا؛ فذلك سيكون منحدراً زلقاً فعلاً**.. ثم قال ما يعني في مجمله أن ستالين نـشأ نـشأة دينيـة أخـذ منهـا الرجعيـة والعنف واضطهاد الآخرين ثم مزجها برؤيته السياسية الخاصة التي زادته طغيانـاً علىٰ طغيانه. وقد حرص في أثناء ممارساته الإجرامية علىٰ أن يبقي علىٰ الكنيسة الروسية إلىٰ جواره. ثم أضاف هتشنز أمراً مثيراً للاهتمام حين قال إن العقلية الدينية كانت واضحة جدّاً في أفعال ستالين الإجرامية.. ثم ختم إجابته بأن قال - وللمرة الثانية - إنه لإثبات أن الإلحاد قد يكون سبباً في العنف علينا أن نجد مجتمعـاً حدث فيه ذلك وكان قد تأسس علىٰ أعمال لوكريتيوس، غاليليو، سبينوزا، آينيشتاين، والبقية.

باختصار شديد يمكن أن نقول إن رد هتشنز علىٰ السؤال: هل تلوم المسيحية علىٰ ما فعله ستالين؛ كان: لا أستطيع أن أقول ذلك ولهذا ألمحت إليه فقط! أما الجزء المتعلق بوضوح العقلية الدينية في جرائم ستالين؛ فلا أظن أن هناك دليلاً أوضح من هذا علىٰ تعصب الملحدين - أو علىٰ الأقل هتشنز - لآرائه.. فحينما يقتل ستالين ملايين البشر بدم بارد يبدأ الملاحدة تحليلاتهم النفسية ويقولون: كان للدين تأثير واضح عليه حتىٰ وإن مقت الدين وكرهه وحاربه، ثم يزعمون أن ذلك التأثير يتضح من خلال الاستبداد الذي قلّ أن تجد له نظيراً يقارب بشاعة وعظم الجرائم التي ارتكبها.. وكما يقول دوكنز في كتاباته وخطاباته: **ابحث عن الدين.**

أما حينما يستخدم أحدهم اسم الرب في القتل والتدمير والاغتصاب فإن

المنطق يصبح: هو قال إنه فعل ما فعل باسم الدين فلماذا نكذبه؟ صحيح أنه أفرط في إراقة الدماء وجمع الأموال وهتك الأعراض بما يتعارض بشكل كليّ مع النصوص المقدسة لديه، لكن كل ذلك لا يهم؛ المهم هو ما قاله، وهو أنه فعل ذلك باسم الرب. المنطق هو ابحث عن الدين، فما بالك حين يقول أحدهم مباشرة إنه ارتكب الجرائم ليرضي الرب، ليس علينا أن نبحث مطلقاً. علينا فقط أن نأخذ بكلامه.

* هذا المنطق هو ما يجعل الملحد يفصل بشكل حازم وقاطع في الخلاف بين عامة المسلمين وبين المتطرفين منهم. ففي حين يجزم عامة المسلمين أن ما يفعله المتشددون هو نتاج فهمهم الخاطئ للنصوص الدينية؛ يقدم المتشددون على القتل باسم الرب ويتهمون بقية المسلمين بالتهاون والتقاعس عن ذلك.

حكم الملاحدة: المتشددون على صواب بقية المسلمين على خطأ!

لكن ماذا عن مبدأ: لا إله في الكون والحياة مادة؟ هو يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى ارتكاب جرائم فظيعة في سبيل الحصول على المادة والسلطة ولأجل السيطرة وقهر الآخرين كما حدث من الشيوعيين، أليس ذلك واضحاً؟

حكم الملاحدة: كيف تجرؤ؟! صحيح أن الشيوعيين كانوا ملحدين متطرفين، لكنهم كانوا أشراراً في الأصل، أما إلحادهم فقد كان أمراً مصادفاً. ومن الخطأ أن نأخذ بقولهم إن قالوا إنهم ارتكبوا جرائمهم بسبب كراهية الدين أو بدافع من المادية الصرفة.

* يقول دوكنز في وهمه: «**إن قيادة مجموعة من الملحدين أشبه بقيادة قطيع من القطط**»، والمعنىٰ أن لدىٰ كل واحد منهم تفكيراً مستقلًّا عن الآخر. ولكن يتضح من إجابات الملحدين علىٰ أسئلة مثل السؤال عن الستالينية مقدار الـ «قص واللصق» الذي يستخدمونه في إجاباتهم. وإلا فلماذا مثلاً لا يوجد عندهم رأي مخالف يقول إنه: **كان لإلحاد الشيوعيين دور أساسي في ما فعلوه ولكن يظل شرّهم محصوراً في فترة زمنية قصيرة وقد انتهت بلا رجعة علىٰ عكس الأديان التي بدأت الحروب بسببها منذ قرون طويلة ولا يعلم أحد متىٰ ستنتهي**؟ أليس هذا رأياً مخالفاً يمكن أن يقول به ملحد؟ لماذا لا يتعب الملاحدة من الالتفاف حول هذا الموضوع؟

لماذا أجاب ريتشارد **دوكنز** بالنفي علىٰ سؤال **مهدي حسن** مذيع قناة الجزيرة الإنجليزية عن ما إذا كان الإلحاد **قاعدة من القواعد التي قام عليها الفكر الشيوعي**؟ لِمَ رد علىٰ سؤاله: **هل كان الإلحاد من صميم الشيوعية**؟ بـ: **لا**؟

* أعتقد أن علىٰ جميع الملحدين أن يتوقفوا تماماً عن الكلام عن الضمير الذي صدّعوا رؤوسنا بالحديث عنه وكأنه أساس لفكرهم. كذلك عن محاولة ربط الصفات الإنسانية بالإلحاد وتقديم أنفسهم علىٰ أنهم **(Secular humanists)** أي لا دينيون إنسانيون. وكما قلنا مراراً، لا يمكن لأحد أن يقول للناس إن الكون وُجد بدون خالق وأن ليس فيه إلا المادة المحسوسة فقط وأن ذلك يقتضي عليهم إلقاء كل الأديان جانباً وأن (**يأخذوا منها فقط ما يوافق العصر من الأخلاق الإنسانية**). الكارثة كلها تكمن في الجزء الأخير بين القوسين.. فعلىٰ أي أساس نلزم الناس بأن يفعلوا فعلاً

يناقض مفهومنا للكون المادي الذي لا يبقىٰ فيه إلا الأصلح؟

يجب علىٰ الملحدين أن يُقروا علىٰ أقل تقدير بأنه ليس من المنطقي أن تكون تلك النقطة محسومة عندهم الىٰ ذلك الحد، بل ينبغي أن يختلف معهم ملحدون آخرون في هذا الصدد. أما هذا الاتفاق المُريب فله علىٰ الأرجح دوافع تجميلية لمنطق قبيح.

* تكمن اليوم خطورة ذلك التغيير - أو بالأحرىٰ التزييف- في أنه أدّىٰ إلىٰ اعتبار الشيوعيين الذين تمسكوا بأصل الفكرة الإلحادية أنهم هم المُجرمون الخارجون عن ملة الإلحاد الصحيحة، فيما خرج بقية الملحدين من قفص الاتهام دون محاكمة.

رأس القائد تحت الرمل أيضاً

- مَن يشاهد مقابلات دوكنز التلفزيونية يعرف أنه معتاد علىٰ الهجوم علىٰ أفكار الآخرين، ولذلك لا يجيد كثيراً الدفاع في حال تعرض هو للهجوم بسبب أفكاره، خصوصاً إذا وصل الأمر للسخرية وأدىٰ ذلك إلىٰ ضحك الجمهور الحاضر أو إلىٰ تصفيقهم. ومَن أراد التحقق فعليه مثلاً أن يراقب ما حدث لدوكنز في حلقة بعنوان: **هل لا زال الكتاب المقدس صالحاً اليوم؟ (Is the Bible still relevant today)** وذلك من برنامج[1]: **الأسئلة الكبرىٰ**

(1) https://www.youtubc.com/watch?v=8Zyq06GvOQ8

(The Big Questions) على الـ **(BBC)** حينما وصف كَتبة العهد القديم بالنسّاخ الجهلة الذين جابوا الصحراء قبل ٢٦٠٠ عام، ثم أتبع ذلك بأن قال إنه لا يعرف شيئاً عن العبرية الأصلية للتوراة.. سيرى كيف اختفت الابتسامة من وجهه تماماً وتغيرت نبرة صوته وحتى طريقة جلوسه عندما ردت عليه الحاخام الحاضرة بقولها: **أن تنظر إلى الكتاب المقدس وليس لديك أدنى معرفة بلغته الأصلية ثم تقول عنهم إنهم كانوا جهلة فذلك أمر مفزع.**

مع الإقرار بأن الجمهور الحاضر في ذلك البرنامج كان يُصفق بسبب وبدون سبب؛ إلا أن تصفيقه تلك المرة وبعد تلك العبارة من الحاخام كان له وقع مختلف على البروفيسور **دوكنز**؛ إذ يمكنك أن تسمع صوت **دوكنز** وهو يتخلل صوت التصفيق وهو يتمتم: **يجب أن أجيب على ذلك!**.. عاد هنالك الاحترام بل والخوف إلى صوته وطريقة جلوسه بدلاً من السخرية والضحك اللذين سبقا ذلك بقليل.

* بالعودة إلى مقابلته على قناة الجزيرة الإنجليزية نجد أن **دوكنز** استخدم منطق السخرية هناك أيضاً ولكن لفك الحصار هذه المرة.

فبعد أن تعمد **دوكنز** أن لا يذكر الإلحاد كواحد من عدة عوامل ساهمت في التأثير على فكر الشيوعيين في الوقت الذي أشار فيه أكثر من مرة إلى أثر الماركسية على قادتهم، وبعد أن زعم أن الإلحاد لم يكن من أساسيات الفكر الشيوعي، غضب **دوكنز** كعادته من طريقة المذيع - **مهدي حسن** - التي أدت إلى ضحك الجمهور حين سأله بسخرية: **إذاً فكلام كارل ماركس عن كون الدين هو أفيون الشعوب كانت مجرد نكتة جانبية؟**

جـاء رد البروفيسور دوكنـز مفاجئـاً بكـل المقـاييس - عـدا مقـاييس الملحدين بالطبع- حين قـال: «**نعم.. كـان ذلـك.. تـصريحاً تـم إخراجـه مـن سياقه، أعني بحقك، ما علاقة ذلك بالإلحاد لا أعرف**»؟!

هنا دعونا نفكر قليلاً.. أحد من وضعوا أسس الإلحـاد الحـديث (كـارل ماركس) يقـول «**إن الـدين هـو أفيون الـشعوب**»[1] وأحـد أكـبر قـادة الـشيوعية الملحـدة (ماوتـسي دونـغ **Mao Zedong**) يقـول: «**إن الـدين هـو بمثابـة السُم**»[2].. وما يزال دوكنز يسأل ما علاقـة ذلـك بالإلحـاد؟! يبـدو أن في الأمـر الكثير من التشابك وهو أمر شائك إلىٰ درجـة لـن نـصل معهـا إلىٰ حـل أبـداً، أليس كذلك يا **قطيع القطط**؟ علىٰ أي حال؛ تابع المذيع قائلاً: «**دعني إذاً أضع تـصريحاً في الـسياق وأقـرأه عليـك.. ألبانيـا.. إحـدىٰ أسـوأ الـدكتاتوريات المستبدة في العالـم خلال المائة سنة الأخيـرة.. المـادة رقـم ٣٧ مـن الدسـتور الشيوعي الألباني نصت علىٰ أن: الدولة لا تعترف بأي ديـن، وتـدعم الدعاية**

---

(١) Religion is the opium of the people قالها الفيلسوف والاقتصادي الألماني الملحد كارل ماركس (Karl Marx) في مقدمة عمله الذي لم يُنشر: A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Right، حيث كان نشر المقدمة بمفردها ١٨٤٣م في مجلته الخاصة، والعبارة لها أصل مشابه في المعنىٰ ظهر في ١٧٩٧م عن الروائي الثوري الفرنسي الماركيز دي ساد (Marquis de Sade) وقد كان من الناشرين للتحرر من كل قيد أخلاقي ومن الداعين لكل شاذ في الأخلاق أو سادي لتحقيق اللذة النفعية أو الشخصية.

(٢) قالها ماوتسي دونغ للراهب البوذي دالي لاما (Dalai Lama) الراهب الأعلىٰ للبوذيين التبتيين Biography of Dalai Lama, published in Taiwan

الإلحادية لأجل غرس رؤية علمية مادية وعالمية في الشعب».

لم يكد حسن ينهي جملته الأخيرة حتىٰ قال دوكنز بسرعة: «ما الذي تظن أنك تقوله؟! إنه لأمر مروع أن يقال! بالطبع إنه كذلك»!

وحينما سأله عن السبب وسأله تحديداً عمّا لا يوافق عليه في ذلك النص قال دوكنز: «لماذا قد أرغب في دعم الدعاية الترويجية للإلحاد؟ أنا أدعم العلم والحقيقة». هنا سأله المذيع السؤال الخاطئ في رأيي (لعله تشتت قليلاً من رد فعل دوكنز المبالغ فيه): «ولكنك لا تدعم نشر الإلحاد»؟ أجاب دوكنز: «أنا أدعم نشر العلم والحقيقة. وإن كان ذلك هو الإلحاد فأنا أدعمه». ثم قال عن نفسه: «أنه وعلىٰ عكس الألبان لم يكن ليجبر الناس علىٰ الإلحاد. بل كان ليقنعهم»!

ومرة أخرىٰ نجا دوكنز من الوقوع في الفخ في اللحظة الأخيرة. وطبعاً ليس بالمنطق؛ بل علىٰ العكس تماماً. فعادة ما يفقد دوكنز نسبيّاً التحكم في أعصابه إن ضحك الحضور علىٰ فكرة طرحها. وفي تلك المقابلة كانت أصوات الضحكات قبل نصف دقيقة تقريباً ما تزال تتردد في أذنيه مما جعله - كالمعتاد- يلجأ إلىٰ منطق الدفاع القريب من العدوانية، مستخدماً عبارات مثل: بحقك! ما الذي تقوله - هل أنت جاد؟

بذلك خرج دوكنز من المأزق وغطىٰ علىٰ منطقه المريض بطريقة لا أعتقد أنها كانت مدروسة أو مقصودة. إنما كان قصده علىٰ الأرجح هو رد بعض اعتباره الذي سلبته تلك الضحكات المؤلمة.

الحقيقة التي طمسها بذلك هي أن السؤال لم يكن عن دوكنز نفسه بل

كان عن (الأشرار). إذ يزعم الملاحدة علىٰ الدوام أنهم ملحدون طيبون. فيما كان الشيوعيون أشراراً اجتمعوا علىٰ الإلحاد بمحض المصادفة. إذاً لماذا سُئل دوكنز عن الشيوعيين الألبان (الأشرار)، وكانت إجابته عمّا يدعمه هو، وعمّا يؤمن به هو؟

إن أنت زعمت أن الإلحاد لم يكن أصلاً في الفكر الشيوعي ثم أتىٰ أحدهم إليك بنص واحد من أحد دساتيرهم، أو بمقتبسات من كلام قادة الشيوعية التي يصرّحون فيها بأن الإلحاد والعداء نحو الأديان هو من ركائز شيوعيتهم فعليك أن تعترف بداية وقبل كل شيء بأنك كنت مخطئاً. ولك بعد ذلك أن تشغّل أسطوانة الملاحدة القديمة: **كانوا أشراراً في الأصل والإلحاد وقع ضحية فهمهم الخاطئ لأسسه العظيمة..**

أما أن يأتيك شخص بتصريحات الشيوعيين ثم يعيد عليك السؤال: هل كان الإلحاد أصلاً في الشيوعية؟ فتجيب: **أنا لا أدعم ذلك الفكر** فأي نوع من المنطق هذا؟

هل يتفق جميع أفراد **قطيع القطط** علىٰ ذلك المنطق؟ أم أصبح لكلمة «**قطط**» أيضاً معانٍ أخرىٰ لا يفهمها غير الملحدين؟

* لعل **مايكل شيرمر (Michael Shermer)** في النهاية لم يكن مخطئاً حينما وصف مسألة الخير والشر تلك بأنها **(debate stopper)**.. أي مسألة فاصلة تقف المناظرة أو النقاش عندها[1]. هو طبعاً كما ذكرت سابقاً كان

(1) The Science of Good and Evil- p. 154-155.

يقصد: إذا كنت توافق علىٰ أنك في حال عدم وجود إله فإنك قد تسرق وتغتصب وتقتل، فإنك شخص لا أخلاقي وعلينا أن نحذر منك.. ولكن وكما أوضحت سابقاً فإن خدعته تكمن في عدم وزن الكلام الذي يقوله في ميزان العقل الذي يفترض به أنه تطور في كون مادي. ولو فعلنا ذلك لوجدنا كلامه لا يعدو كونه تلاعباً بالمشاعر وابتزازاً للعواطف عن طريق توجيه الخطاب مباشرة إلىٰ السائل علىٰ طريقة: **هل كنت لتقتل عائلتك من أجل المال إن لم تكن مؤمناً؟! انظر إلىٰ وجوه أطفالك وقل لهم إنك لو لم تكن مؤمناً واضطرتك المصلحة إلىٰ قتلهم فإنك لم تكن لتتوانىٰ عن فعل ذلك أيها الوحش المنافق الشرير!**

لهذا يستثني الملحد نفسه

- أما وقد اقتربنا من الانتهاء من الحديث عن الأخلاق، فقد أحببت أن أشير إلىٰ مسألة دأبَ الملاحدة علىٰ التكلم فيها بثقة مفرطة، ألا وهي جوانب الخير والشر في الأديان. فكثيراً ما كان هيتشنز يقول لأتباعه: إن طلبت منكم أن تعطوني نصّاً دينيّاً واحداً لا يمكن لقائله أن يكون بشراً فإنكم ستعجزون عن ذلك، أما إن طلبت منكم ذكر أمر مجنون تم ارتكابه باسم الدين فإن القائمة ستكون طويلة. والقصد من كلام هتشنز هو أن جوانب الشر تغلب علىٰ جوانب الخير في الأديان لذلك سيكون العالم مكاناً أفضل إن اختفت من الوجود. ومن الملاحظ أن الملاحدة عموماً لا يقبلون حُجة ولا عذراً حينما يتعلق الأمر بارتكاب الجرائم باسم الدين حتىٰ وإن خالف مرتكب

الجريمة دينه بذلك الجرم؛ إذ يبقىٰ الدين عندهم مسؤولاً لمجرد وجوده في العالم. وقد جرت العادة لدىٰ المؤمنين أن يدافعوا عن دينهم ويثبتوا أن جانب الخير يغلب عليه، إلا أنني بالطبع لن أفعل ذلك هنا، بل إنني سأطبق قواعد الملحدين علىٰ الفكر الإلحادي..

ينتقد دوكنز وهيتشنز الدين ويتهمانه بالسلبية لأنه كثيراً ما (فشل) في منع وقوع صراعات قامت في مناطق وجوده حتىٰ وإن لم يكن الدين نفسه هو سببها. ولأننا نعرف أن أعظم الكوارث التي حلت علىٰ البشرية عبر العصور كالحربين العالميتين وحرب الفيتنام والحرب الباردة - وتوابعها - وقبل ذلك حرب المائة عام وحروب نابليون وكذلك المجاعات والفساد والاستعمار بكل ما جره من ويلات، بل وحتىٰ عمليات السطو والسرقة وغيرها، كل ذلك لم يقع ولا يقع بدافع ديني إنما وقع ويقع بدافع مادي صرف؛ وبما أن الإلحاد هو ما يتبنىٰ المادية الصرفة كأساس يقوم عليه؛ فإن انتقاد دوكنز وهيتشنز يعني أن الدين ليس له فائدة ولا ينبغي له أن يبقىٰ لأنه لم يستطع أن يصلح ما أفسده فكرهم المادي المنحرف. وبتطبيق معاييرهما فإن مجرد التفكير في اعتناق المذهب المادي يجب أن يتم منعه بقوة القانون وفي جميع أنحاء العالم.. ذلك لأن وجود الكثير من الآيات التي تحرم القتل لم يكن كافياً لإقناع الملحدين أن الإسلام مثلاً لا يدعو إلىٰ القتل لذلك يهاجمونه زاعمين أنه خطر علىٰ الإنسانية، هذا في الوقت الذي يطلب فيه الملاحدة الماديون من العالم أن يقتنع بفكرهم القائم علىٰ المادية المقيتة والتي أثبتت قدرتها علىٰ تحويل المجتمعات الإنسانية إلىٰ بهيمية لمجرد أنهم

عقبوا علىٰ [**أصل**] فكرتهم المدمرة بعبارة: **ولكن كونوا جيدين!**

- إن مَن اقتنع بما سبق عرضه من أدلة وحُجج علىٰ أن الفكر المادي الإلحادي لا يتوافق مع ما يسميه البشر بالأخلاق؛ لعله من المناسب أن ينتقل إلىٰ الفصل التالي مباشرة دون أن يتوقف لقراءة هذا الجزء الذي أوجهه خصيصاً لمَن لا يزال يُصرّ علىٰ موقفه العدائي المُتصلب من غلاة الملحدين؛ عشاق الاستهزاء المتعصّبين..

إذا سألني ملحد (مثلاً) عن آية ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء: ١١). وأجبته بأني أعتقد أن الرجل يجب أن يرث مثل ما ترث المرأة بالضبط فهل سيُحل عنده الإشكال؟ أم أن مشكلته هي مع النص المقدس وليس مع ما اعتقده أنا؟ ألا يرىٰ أن إيماني بذلك النص يقتضي أن ألتزم به عملياً؟.. إذاً لماذا ينص دين الملحد علىٰ أن: لا إله للكون والحياة مادة ثم حينما نأتي لنناقش تبعات ذلك المعتقد يبدأ بسرد قناعاته الشخصية التي لا يتوافق معظمها مع نصه المقدس؟.. الحقيقة أن الفكر الإلحادي المادي يجيز الفعل الذي لا يتعارض مع (**لا إله في الكون والحياة مادة**) أيّاً كان الفعل.. بل وقد يوجبه أيضاً في المجتمعات التي ينتشر فيها، إذ إن ضريبة المخالفة ستكون الزوال والفناء.

لذلك حتىٰ أكون في غاية الوضوح أقول: إن امتناعك كملحد عن السرقة والرشوة والاغتصاب أمر عائد إليك لكنك **تخالف به عقيدتك**.. كذلك أيضاً هو شأن امتناعك (الأعمىٰ) عن زنىٰ المحارم. كما أن عدم تأجير قريباتك

وأهل بيتك للأثرياء مقابل مبلغ مالي أو مقابل ترقية في العمل أو كوسيلة لسداد دين يعتبر أيضا مخالفاً للنص، لأن المادة التي هي أهم ما في الكون يمكنك أن تتحصل عليها بتلك الأمور البسيطة التي لا أهمية لها إلا عند المتدينين (المتخلفين)، أما أنت فنصّك المقدس يحثك علىٰ فعل ذلك وأكثر، ربما علىٰ عرض نفسك أنت أيضاً علىٰ المشتري في حال رغب في ذلك.. ولم لا؟ فالشذوذ الجنسي حسب فتاوىٰ دوكنز ليس إلا عَرَضاً طبيعيّاً للتطور، فإذا تحصلت به كملحد علىٰ المال فإنك دون شك لا تخرج من ملة الإلحاد بل علىٰ العكس، أنت تثبت بذلك أنك قوي الإيمان بالفكر الإلحادي لدرجة التطبيق العملي الحرفي لكل ما جاء به. أولم يلاحظ العلماء عدداً من السلوكيات الجنسية الشاذة عند بعض الحيوانات وهو ما تنفك تدافع به عن (حقوق) الشواذ؟ ما المشكلة إذاً في أخذ بعض الحقائق من حياة (أبناء العم) ثم عرضها علىٰ نصّك المقدس لتحقيق السعادة المطلقة من منظورك المادي؟ لماذا يجاهر كريستوفر هيتشنز بممارسته للشذوذ الجنسي مع رجلين أصبحا وزراء في حكومة مارغريت ثاتشر ليتحصل علىٰ الشهرة ثم تستنكف أنت عن ذلك؟

* من المضحك أن ينتقد الملحد مكانة المرأة في الإسلام مع أن مكانتها في الفكر الإلحادي أحط من الـ...، فهو لا يقف فقط مكتوف الأيدي أمام التمييز ضدها [لأنه بالعموم فكر سلبي]؛ بل إنه بنصه علىٰ أن المادة هي أهم ما في الوجود يدعو لاستغلالها وربما بيع لحمها في السوق كما هو حال كثير من النساء في الغرب اليوم. ثم إن الفكر الذي يبيح الجنس الجماعي وتبادل

العشيقات والدعارة، وسياسة الجنس مقابل السكن أو الترقية أو الشهرة لا يحق لمعتنقيه مجرد الحديث عن مكانة المرأة.

* قد يصعب تخيل ذلك ولكن الحقيقة هي أنه يمكن للمادية والإلحاد أن يصلا بالإنسان عامة وبالمرأة خاصة إلىٰ مستويات أحط وأدنىٰ بكثير مما ذكرته حتىٰ الآن، لدرجة قد تدفع بعض الحيوانات ربما للاحتجاج من باب أن أفعال أولئك (البشر) تسيء إلىٰ سمعة باقي الكائنات الحية.. لكن لعلي أرأف بالقارئ غير الملحد وأكتفي بما ذكرت وأختم بأن أقول: إن النتائج الكارثية التي يؤدي إليها الإلحاد سببها أن الأخلاق تأتي بتحريم وتجريم الأفعال القبيحة، ومشكلة الإلحاد هي أنه لا يجرّم شيئا [قبيحا]، هو فقط يزيل الحماية الأخلاقية التي يوفرها الدين ثم يترك الملحد يتخبط كما رأينا.

* * *

الانتخاب الطبيعي والمنطق المعجز

بداية: كيف يمكن لغير صاحب الاختصاص أن يصدر حكماً في مسألة علمية جدلية اختلف عليها العلماء المتخصصون كتطور الكائنات مثلاً؟

* لو نظرنا إلىٰ علم الرياضيات الذي يُعدّ أباً للعلوم ثم إلىٰ علم الفيزياء وصولاً إلىٰ علم الأحياء لوجدنا أن الرياضيات أقلها إثارة للجدل وأكثرها وضوحاً، فما لا تشير إليه الأرقام لا وجود له. أما بالنسبة للفيزياء فهناك مجال أوسع للمخيلة والافتراضات والاختراعات [مثل الأكوان المتعددة]. علىٰ أن نصيب الأسد من الشطحات والتكهنات من بين العلوم الثلاثة كان لعلم الأحياء الذي لا يمكن أن يستقيم عند كثير من الغربيين دون حشر التطورية الداروينية في كل زاوية من زواياه.

* يؤمن ريتشارد دوكنز - وجميع التطوريين - أن لجميع الكائنات الحية أصلاً واحداً متناهِياً في البساطة تطورت عنه عبر ملايين السنين إلىٰ أن وصلت إلىٰ حالها اليوم. كما يؤمن دوكنز بفرضية أخرىٰ تحت مظلة التطورية الداروينية وهي الجين الأناني، إذ يرىٰ أن الجينات التي تتصرف بأنانية هي في الحقيقة تمتطي الكائنات الحية - أو آلات البقاء كما يسميها - كي تمر عبر الأجيال، وهو يعتقد أن تلك «الحقيقة» مسؤولة بشكل كلي عن تصرفات

الكائنات الحية، وبشكل جزئي عن سلوك البشر خاصة.

* إن مَن يقرأ كتاب «الجين الأناني» **لريتشارد دوكنز** - وأنصح بالطبعة الخاصة بمرور ٣٠ عاماً علىٰ صدور الكتاب- سيجد طرقاً كثيرة للإجابة علىٰ السؤال في بداية هذا الفصل. ولنبدأ هنا بدون إطالة أكثر في محاولة أخذ ما قد يفيد بحثنا من كمّ المعلومات [الشطحات] المتوفرة.

* بداية؛ يوجد لدىٰ أنصار التطورية الداروينية بعض الحيل التي يستخدمونها في حال وصلت بهم افتراضاتهم إلىٰ طريق مسدود. ولعل أكثرها رواجاً وانتشاراً ما يعرفونه بالانتخاب الجماعي وكذلك ما يعرف بالتفضيل الجنسي.

تنص النظرية علىٰ أن البقاء للأصلح، وذلك علىٰ مستوىٰ الجينات وكذلك علىٰ مستوىٰ الكائن ككل، فما لا يصلح لا يبقىٰ.. - لكن توجد في الطبيعة أمثلة تتعارض مع ذلك؟ - لا بد إذاً أن التطورية التي يؤمنون بها أبقته لأسباب (تبدو في ظاهرها) متناقضة مع فرضية صراع البقاء. لذلك فإنهم حينما يجدون في أجساد الكائنات أو في سلوكها (الذي تتحكم به الجينات) ما يخالف توجههم فإنهم يقومون مباشرة بدفع الانتخاب الجماعي (**Group selection**) أو التفضيل الجنسي أو غيرهما كتفسير محتمل. واللافت هو أن علماء الداروينية لا يدّعون حتىٰ أن ما يذكرونه هو المسبب المؤكد لهذا السلوك أو ذاك الشكل؛ بل يكتفون بالتكهن مردفين أن تكهنهم هو الأكثر منطقية، وكثيراً جداً ما تتعارض تكهناتهم تلك بعضها مع بعض لدرجة دفعت ريتشارد **دوكنز** في هامش كتاب الجين الأناني أن يكتب في حق

التطوري الآخر: وين إدواردز (**V.C. Wynne-Edwards**):

«يتم بصفة عامة التعامل مع وين إدواردز بطريقة أكثر لطفاً مقارنة بباقي المهرطقين الأكاديميين».

- تحدث دوكنز نفسه في كتابه "الجين الأناني" عن الكثير والكثير من الأمور التي لا يسهل على نظرية الجين الأناني أو حتى الداروينية نفسها تفسيرها، ومن ذلك: اختيار الكائنات للتكاثر الجنسي بدلاً من الانقسام الذي يضمن انتقال كل الجينات بدلاً من نصفها فقط.. وكذلك بلوغ النساء سن اليأس بدلاً من الاستمرار في الإنجاب.. ثم هناك مثال (القردة الثكلى المتبنية) الذي يقول فيه:

«هنالك مثال على خطأ متطرف جداً إلى حد قد يجعلك تعتبر أنه ليس خطأ فحسب بل دليلاً على خطأ النظرية بأكملها [الجينة الأنانية]. إنها حالة الأمهات الثكلى من القردة التي تمت مشاهدتها وهي تسرق صغير أنثى أخرى ثم تقوم برعايته هي. وأنا أرى في هذا خطأً مزدوجاً، إذ إن المتبنية لا تضيع وقتها فحسب بل إنها أيضاً تحرر أنثى أخرى منافسة لها من تربية صغيرها مما يسمح لها بإنجاب صغير آخر بسرعة أكبر. يبدو لي كمثال حرج يستحق الدراسة باستفاضة. فعلينا أن نعرف إلى أي حد يتكرر حدوثه، ومستوى القرابة المتوسط بين المتبنية والصغير..» انتهى.

وغني عن القول أن دوكنز قد فضل (دون أي دراسة) أن يعتبر ذلك المثال خطأً معقولاً لا يسقط نظريته. ثم لم يأت على ذكره مجدداً ولو في هامش الطبعات اللاحقة.

- في "الجين الأناني" أيضاً ينكر دوكنز أن تكون تضحية بعض الكائنات بنفسها دفاعاً عن غيرها دليلاً علىٰ الإيثار المطلق. إذ يحاول أن يصف مثلاً قفير أو مستعمرة النحل بكاملها بأنها جسد واحد. فلو ماتت النحلة العاملة في دفاعها عن المجموعة يكون الأمر أشبه باقتطاع جزء صغير من الجسد ليبقىٰ الجسد بكامله، وهو يستند فيما ذهب إليه إلىٰ أنه ليس للنحلة العاملة العقيم قدرة علىٰ نشر جيناتها.

- أما هنا؛ فسيطلعنا دوكنز علىٰ الخيارات «العلمية» المطروحة لتفسير نداءات الإنذار التي تطلقها بعض الكائنات لا سيما الطيور «لننتقي منها ما يرضينا»!

يقول: لطالما تم اعتبار نداءات الإنذار التي تطلقها الطيور «محرجة» للنظرية الداروينية، الأمر الذي جعل محاولة تصور تفسيرات لها تصبح كالتمارين الرياضية. وكنتيجة لذلك أصبح لدينا الآن الكثير من التفسيرات الجيدة بحيث يصعب علينا الآن أن نتذكر ما الذي أثار كل ذلك اللغط في السابق. من الواضح أنه في حال كان السرب يشمل أفراداً بينهم صلة قرابة وثيقة فإن جيناً يُعطي نداءً للإنذار يمكن أن يزدهر في الجمعية الجينية، لأن احتمال وجود الجين نفسه عند الأفراد الذين يتم إنقاذهم مرتفع. وهذا صحيح وإن دفع مطلق التحذير الثمن باهظاً مقابل سلوكه الإيثاري عبر تحويل انتباه المفترس إلىٰ نفسه.

ثم يقول: «إذا لم تقنعك فكرة الانتقائية بين الأقارب هذه فإن لديك الكثير من النظريات لتنتقي منها. هناك الكثير من الطرق التي تسمح لمطلق

التحذير بأن يحقق مكاسب أنانية عبر إنذار رفاقه. يقترح (ترايفرس) خمس أفكار جيدة، أجد الاثنتين التاليتين أكثرها إقناعاً..» لاحظ طريقة عرض البضاعة: إذا لم يقنعك هذا فلدينا هراء آخر! مختصر الفكرة الأولىٰ هو أن الطائر الذي يُطلق التحذير يفعل ذلك لكي تهدأ المجموعة أو تختبئ حتىٰ لا يتعرض هو للخطر معها إن حضر المفترس وهم عنه غافلون. أما الثانية فتفترض أن الفرد الأناني يحذر البقية حتىٰ لا يهلكوا فيبقىٰ وحيداً بلا مجموعة مما يقلل من فرص بقائه..

إن ما نلاحظه علىٰ هذه التفسيرات هو أن شرط قبولها هو فقط عدم تعارضها مع الداروينية أو الجينية الأنانية، أما بالنسبة للأدلة فالتفسيرات تكون صحيحة إذا لم يكن هناك دليل ضدها، علىٰ عكس الحقائق العلمية التي لا تثبت إلا بدليل يثبتها.. صحيح أن دوكنز وغيره من التطوريين يحاولون استخدام لغة فيها شيء من الحذر عند الحديث عن تفاصيل من هذا النوع؛ إذ إنهم لا يجزمون بصحة تفسير واحد دون بقية التفسيرات - التي لا يمكن دحضها هي الأخرىٰ إلا بأدلة - ولكن الكارثة هي أنهم دائما ما يجمعون عدداً من التفسيرات المحتملة - من وجهة نظرهم بالطبع - ويضعونها فوق بعضها بعضاً، ليصلوا في النهاية وبقدرة قادر إلىٰ نظرية أو استنتاج نهائي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

- أصل هنا إلىٰ المثال الأخير الذي في رأيي يشرح كل شيء بوضوح لا يماثله وضوح إلىٰ درجة قد يظن القارئ معها أن في الأمر مزحة أو افتراءً علىٰ دوكنز..

* كان ريتشارد دوكنز قد ذكر في بداية «الجين الأناني» سلوك غزال تومسون الغريب والمتمثل في القفز عالياً أمام المفترس بما يشبه صافرات التحذير التي تطلقها بعض الطيور، إنه سلوك قال إنه يقع علىٰ عاتقه تفسيره. وكان دوكنز قد انتقد قول روبرت اردريه (Robert Ardrey) أن الانتخاب الجماعي هو الطريقة الوحيدة المحتملة لتفسير ذلك السلوك. [إن الظبي يعرض نفسه كوجبة للمفترس حتىٰ ينجو باقي أفراد المجموعة، وبذلك يكون البقاء للمجموعة الأصلح وليس للفرد الأصلح].

ودوكنز بالطبع ليس من أنصار ذلك النوع من الانتخاب والذي يُعتبر وين ادواردز الذي وصفه دوكنز بالمهرطق الأكاديمي أحد أبرز المسؤولين عن نشره.

لذلك وقع علىٰ عاتق دوكنز (كما قال هو) أن يفسر سلوك ذلك النوع من الغزلان باستخدام نظرية الجينة الأنانية.. وهنا أقدم للقارئ هذه القطعة التحليلية المنطقية النادرة الوجود..

يقول دوكنز: **«ماذا عن غزال تومسون الواثب الذي ذكرته في الفصل الأول والذي دفع تصرفه الإيثاري الانتحاري في ظاهره اردريه إلىٰ أن يجزم بأن لا تفسير لهذا السلوك إلا بالانتخاب الجماعي؟ وهنا تواجه نظرية الجينة الأنانية تحدياً مضنياً. صحيح أن نداءات الإنذار فعالة لدىٰ الطيور، إلا أنها كما هو واضح مصممة لتكون مستترة وخفية قدر الإمكان. أما القفزات العالية فليست كذلك. بل فيها من التباهي ما يصل إلىٰ حد الاستفزاز الصريح. إذ تبدو الغزلان وكأنها تستدعي انتباه المفترس إليها، وكأنها تحاول استفزازه»**.

إلىٰ هذا الجزء؛ لا يمكن لغير المتخصص في علم الحيوان أن يُعارض دوكنز، فهو يتحدث عن سلوك مراقب ومُثبَت لتلك الحيوانات.. ولكن التحليل الذي يتبناه في تفسير ذلك السلوك هو ما ينضح باليأس والتشدد والتنطع والاستماتة في تحليل كل شيء بما يتناسب مع الرؤىٰ التي يضعها سلفًا ولو كانت عوراء أو حتىٰ عمياء..

يقول: «**هذه الملاحظة - القفزات المستفزة - قادت بشكل مبهج إلىٰ نظرية جريئة. النظرية في الأصل تنبأ بها: ن. سميث (N. Smythe)، لكن عند معاينة النتيجة المنطقية التي وصلت إليها؛ تجد أنها تحمل توقيع: أ. زافي (A. Zahavi) الذي لا يمكنك أن تخطئه.**

ويمكن عرض نظرية زافي علىٰ النحو التالي: يتمثل الجزء الأكبر من التفكير غير التقليدي في النظر إلىٰ القفز بعيداً عن كونه تحذيراً للغزلان الأخرىٰ أنه موجه إلىٰ المفترسات ذاتها. صحيح أن الغزلان الأخرىٰ تلاحظه وتتغير تصرفاتها تبعًا لذلك، إلا أن ذلك تأثير عرضي مرافق للغرض الأساسي وهو إرسال رسالة للمفترس. ترجمتها: انظر كيف أقفز عاليًا، من الواضح أنني غزال موفور الصحة والنشاط ولا يمكنك الإمساك بي. ستكون أكثر حكمة إن حاولت الإمساك بجاري الذي لا يقفز مثلي»!.. إلىٰ أن وصل دوكنز إلىٰ الاستنتاج النهائي الذي يفترض به أن يكون علميًا: «**بحسب هذه النظرية فإن ذلك الاستعراض أبعد ما يكون عن الإيثار، بل هو حقيقة أناني. حيث إن الغرض منه هو إقناع المفترس بمطاردة فرد آخر**». انتهىٰ.

الطريف أن دوكنز وصف ما سبق بالنظرية الجريئة، ولعله كان يقصد أن

يصف ذلك الشيء بأنه: هراء فاحش فاضح أعمىٰ، مغرق في اللا منطقية وعدم المصداقية يقطر مزيجاً من اليأس والتعنت، الخبث والتنطع والبؤس والتشدد. جرأة تصل إلىٰ حد الوقاحة في محاولة تغيير ما تشير إليه البراهين الواضحة والأدلة الدامغة، ومثال صارخ علىٰ أن قلب الحقائق وتحوير المعاني أصبح عند البعض مهنة تمتهن وحرفة تتخذ دون أن تتطلب موهبة ولا حتىٰ جهداً.

أغرب من الخيال

- إن أصل الحياة أو الخلية الحية الأولىٰ التي يقول بها التطوريون هو السؤال الأكبر الذي لا يجد له الداروينيون جواباً. فكل ما يقدمونه في هذا الباب لا يعدو كونه افتراضات لا دليل عليها ولا أساس لها علىٰ الإطلاق.

ريتشارد دوكنز أوقع نفسه في حرج كبير حينما ظهر في مقابلة تلفزيونية أجراها معه الممثل والإعلامي اليهودي بن ستاين[1] (**Ben Stein**). لا ننكر كبداية أن المقصود من تلك المقابلة كان إظهار **دوكنز** بمظهر المتخبط الذي لا يعي ما يقول، ولكن **دوكنز** بدون شك وقع في الفخ بشكل لا أعتقد أن محاوره كان يحلم به. فما الذي قد يدفع بدارويني بثقل **دوكنز** أن يفكر مجرد

---

(١) والتي تم تضمينها في الفيلم الذي أحدث ضجة كبيرة في الخارج باسم: المطرودون – غير مسموح بالذكاء Expelled: No intelligence allowed ٢٠٠٨م والذي عرض معنىٰ التضييق والاضطهاد العلمي الذي يُمارس في أمريكا علىٰ كل مَن يهاجم التطور أو يُناصر نظرية التصميم الذكي (Intelligent design).

https://www.youtube.com/watch?v=GlZtEjtlirc

تفكير أن الخلية الحية الأولىٰ يمكن أن تكون قد صُممت من قِبل حضارة كانت قد تطورت داروينياً في مكان آخر من الكون؟ حضارة تطورت إلىٰ درجة كبيرة جداً وصلت إلىٰ حد تصميم شيء مثل الخلية الحية؛ ثم قامت بـ (غرس) تلك الخلية علىٰ أرض هذا الكوكب ثم بدأت الداروينية عملها بعد ذلك؟ مجرد أن يخطر مثل هذا الأمر علىٰ بال مَن يفترض به أن يكون عالماً هو شيء غريب؛ أما أن يتلفظ به أمام الناس فذلك ليس إلا نتاجاً لعداوة كانت تتنامىٰ ضد الدين فتعملقت حتىٰ أزاحت وبسهولة الأمانة العلمية التي كان يفترض بها أن تأتي في المقام الأول لدىٰ العالِم **دوكنز**..لعل مصدر الدخل الجديد كان مربحاً إلىٰ درجة لم يكن يتوقعها.

* أخذ **دوكنز** بعد تلك المقابلة يدافع عما قاله بأنه تعرض للاجتزاء وأنه وقع في فخ نُصب له [وهو أمر اعتاد هو أن يفعله بضيوفه المتدينين في برنامجه علىٰ القناة البريطانية الرابعة]؛ وأن تلك الإجابة العجيبة جاءت في رد علىٰ سؤال: هل ترىٰ أية طريقة أخرىٰ كان يمكن للحياة أن تنشأ بها علىٰ الأرض بجانب المصادفة المحضة..

لكن ماذا عن: لا؟ لا أرىٰ أية طريقة أخرىٰ في الوقت الحالي؟ ما عيب هذه الإجابة؟ أليست أحفظ لماء وجه العالِم؟ أم أن تركيز المتدينين علىٰ معضلة **أصل الحياة** عند الداروينيين يعطي دوكنز الحق في أن يتلفظ بذلك الكلام الفارغ؛ فقط من أجل أن يعطي انطباعاً للعوام بأن للمسألة احتمالات أكثر مما يعتقدون وأن العلم (التطور) ليس عاجزاً متجمداً أمامها بل إنه يأتي دائماً بافتراضات جديدة ليدرسها ويحللها؟

لو نظرنا للأمر من هذه الناحية يصبح الأمر منطقيّـًا بنسبة تتجاوز قليلاً الصفر بالمائة والتي هي نسبة منطقية إجابة دوكنز إن أخذناها بشكل حرفي وعلىٰ ظاهرها.

* لم تتوقف السخافات عند ذلك الحد بالمناسبة.. فدوكنز يقول إنه علىٰ دراية أن تلك الإجابة ستطرح سؤالاً بدهيّـًا عن أصل تلك الحضارة التي بدأت الحياة علىٰ الأرض، ثم سؤال عن أصل الأصل.. ومن ثم الدخول في ارتداد لانهائي، والإجابة علىٰ ذلك كله طبعـًا هي: ليست لديه أدنىٰ فكرة.

* لعل أحد الأسباب التي دفعت دوكنز للقول بتلك الإجابة المحرجة هو تعقيبه العجيب [أو اعترافه] الذي أضافه بعدها مباشرة حين قال إن الكائنات المصمِّمة هي فرضية تثير الفضول وإنه يظن أنه من الممكن أن نجد أدلة عليها؛ وإذا ما بحثنا في تفاصيل الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية يمكن أن نجد توقيعـًا لمصمم من نوع ما!

أتساءل فقط بداعي الفضول: هل أخذ دوكنز عمر الكون بعين الاعتبار في افتراضه ذاك؟ هل خطر علىٰ باله سؤال متىٰ نشأت الخلية الأولىٰ لحضارة متقدمة جداً إلىٰ درجة مكنتها من وضع الخلية الحية الأولىٰ علىٰ الأرض قبل مليارات السنين؟ ثم لماذا تكبدت كل ذلك العناء لترك خلية فقط؟ لماذا ليس كائنـًا حيـًا بأكمله؟ كانت تلك الحضارة بلا شك تفهم التطور وتعرف تمامـًا ما سينتج عن البذرة التي تركتها، إذاً.. لماذا.. آسف.. لقد فقدت اهتمامي فجأة بتلك النقطة..

المهم.. أن القضية التي أحاول توضيحها هنا هي أن العلم اليوم لم يعد

يوضع في المقام الأول عند مناقشة هذه المسألة بالذات، وذلك بسبب الانقسام العميق بين المؤمنين بالخلق من جهة والتطوريين الداروينيين من جهة أخرىٰ. وهو انقسام بات يجعل من الافتراضات العلمية البحتة هجوماً صريحاً وسافراً علىٰ الآخر.

* يتفوق المؤمنون علىٰ الملاحدة في هذه النقطة تفوقاً ظاهراً، حيث إنهم علىٰ دراية تامة بوجود تلك المشكلة رغم زعمهم الدائم أنها ليست سبباً في قبولهم أو رفضهم لمُخرَجات العلم. في حين أن الملاحدة يُجمِعون علىٰ أن الأصل في الإلحاد هو قبول ما يثبته العلم والمنطق؛ ولو كان موافقاً للدين. ولعل ذلك يعتبر إحدىٰ أكبر الدلالات علىٰ الطريقة التي ينتهجها الملاحدة في تفكيرهم القائم علىٰ خداع النفس أولاً، ثم الآخرين بعد ذلك وهو ما يهمنا بالطبع.

- إن ما أطلبه من الملحدين هنا ليس الاعتراف بصحة الدين أو خطأ الداروينية أو أي شيء بذلك الحجم، بل هو أمر أيسر من ذلك بكثير. كل ما أطلبه من الملحد هو أن يُقرّ بأن الاعتراف بصحة شيء أتىٰ به الدين ليس بالسهولة التي يصورها الملاحدة، وأنه دائماً ما تتوفر طريقة لرفض الحقائق العلمية؛ أو علىٰ الأقل لتحوير معانيها.

ميكانيكية التطور

- لا يعطي التطور للكائن الحي ما يساعده علىٰ البقاء في ظروف بيئته عن قصد. بل إن الكائن يكون عرضة للطفرات والتغيرات العشوائية عبر الأجيال.

فإن كان التغير الناشئ يفيد الكائن الحي في صراع الحياة كُتب لـذلك التغيّـر البقـاء والاستمرار بل والازدياد مع مرور الزمن متسبباً بذلك في تطور الكـائن. ويشرح ريتشارد دوكنز ذلك الأمر في كتاب "صانع الساعات الأعمىٰ" بقولـه: «لنفـرض **أن في النمور جيناً معيناً يؤثر في خلايا الفك متسبباً في أن تصبح الأسنان أكثر حدة.. النمر الذي تكون أسنانه أكثر حدة يستطيع قتل الفريسة بكفاءة أكثر من النمر العادي. وهكذا سيكون لديه سلالة أكثر وبالتالي فإنه يمرر رأسيّاً عدداً أكبر من نسخ ذلك الجين الذي يجعل الأسنان أكثر حدة. وهو بالطبع يمرر في الوقت نفسه كل جيناته الأخرىٰ؛ ولكن جين الأسنان الحادة هو الذي سيبقىٰ في أجساد النمور ذوات الأسنان الحادة»**. إذاً فائدة المورّث أو الجين في تحسين حياة النمر هي ما يبقيه وينقله عبر الأجيال. أما الجين الذي ليس له فائدة عملية تُحسّن حياة الكائن الحي فإنه يختفي لعدم قدرته علىٰ فرض بقائه.

* يقول التطوريون إن التطور هو صانع ساعات أعمىٰ لا يرىٰ ولا يهدف لشيء. فهو الذي أعطىٰ الدب القطبي لونـه الأبيض المثالي للعيش في البيئة القطبيـة. ولكـن التطـور حينمـا فعـل ذلـك لـم يفعلـه مـدركـاً أن البيئـة القطبيـة تغطيها الثلـوج البيـضاء لـذلك قـام بـ (طلـي) الـدب القطبـي بـاللون الأبـيض؛ ولكن ما حدث - حسب ما يرىٰ التطوريـون بـالطبع - هـو أن الدببـة اكتـسبت لونها الأبيض عن طريق التدرج. فالدب الذي تحدُث لديه طفرة جينيـة تعطيـه لونـاً أفتح قليلاً يكون أكثر قابلية للبقاء والتناسل لأنه يستفيد فائدة مباشرة مـن تلك الطفرة فيكون بذلك أوفر حظّاً في البقاء، ومن ثم تكون لجيناتـه هـو دون غيره الاحتمالية الأكبر للانتقال عبر الأجيال، لأن تكرار حدوث تلـك الطفـرة

يكسب أحفاد ذلك الدب لونـاً أكثر قربـاً للبيئة المحيطة؛ انتهاءً إلىٰ اللون الأبيض المماثل تماماً للبيئة التي يعيش فيها.

هذا هو التفسير العملي الذي يقدمه التطوريون لمقولة أنه لو أتيح لقرد أن يضرب بشكل عشوائي علىٰ آلة كاتبة لمدة طويلة جداً من الزمن (ملايين السنين أو أكثر) فإنه قد يأتي في النهاية بكل أعمال شيكسبير. ودوكنز في صانع الساعات الأعمىٰ ناقش احتمالية أن يكتب قرد عبارة: **(Methinks it is like a weasel)**. وهي كلمة لشخصية هاملت الشهيرة من مسرحية شكسبير وتعني: «يبدو أنه ابن عرس»[1].

قال **دوكنز** أن احتمالية أن يكتب القرد العبارة السابقة عشوائيّاً – ناهيك عن أعمال **شيكسبير** – هي شبه معدومة ولو أعطينا الأمر من الزمن ما أعطيناه. ولكن إذا دخل في الأمر عنصر خارجي يحفظ الحرف الصحيح في موضعه متىٰ لزم الأمر فإنه ليس فقط من الممكن بل من المحتم أن القرد سيأتي بأعمال **شيكسبير** كاملة بعد مدة كافية من الزمن. والفرق أن الأمر في الحالة الأولىٰ عشوائي تماماً؛ يضرب القرد علىٰ الآلة الكاتبة كيفما اتفق لفترة زمنية لا تكاد تكون محدودة ولا يأتي بشيء. أما في الحالة الثانية فإن العنصر الخارجي يقوم **بالانتقاء**. القرد يضرب علىٰ الآلة الكاتبة بصورة عشوائية ولكن لا يتم حفظ أي شيء يطبعه **إلا إن وافق شيئاً معيناً**؛ هو في هذه الحالة الحروف المكونة لعبارة: **(Me thinks it is like a weasel)**

(١) ابن عرس أو (weasel) نوع من الحيوانات الثديية آكلة اللحوم، وهو نفسه الدلق أو الرغوب.

وهنا تبرز نقطة عادة ما يساء فهمها بين الجانبين.. يحتج المؤمنون بالخلق أنه يفترض بالتطور أن يكون عشوائيّاً وليس له مقاصد بعيدة؛ بينما انتقاء الحروف المشروح في مثال القرد هو قصد واضح. ويجيب التطوريون على هذا الكلام أن التطور لا يفعل ذلك قصداً؛ بل كما يتبيّن من مثالي النمر والدب القطبي فإن الطفرات والتغيرات المفيدة وحدها هي التي تبقى - كما يتم حفظ الحروف الصحيحة فقط - وذلك بأن تجعل من الكائن الحي أكثر قدرة على البقاء وهو الأمر الذي يجعله أكثر قدرة على تمرير جيناته، فيما تموت الأفراد الأخرى وتموت معها جيناتها لتنتهي للأبد تماماً كما يتم تجاهل الحرف الخاطئ وعدم الإبقاء عليه.

لكن يمكننا أن نتساءل عن آلية عمل الطفرة - أو الطفرات- التي أدت إلى اكتساب الحمار الوحشي مثلاً جلداً مميزاً وجميلاً (يكاد يكون مصمماً).. وكذلك الأمر مع كثير من الطيور والأسماك وحتى الحشرات. طبعاً يحلو للملحد هنا أن يرمي بالتفضيل الجنسي كإجابة.. واللافت في تلك الإجابة بالتحديد هو أن التطوريين حينما يستخدمونها لا يحتاجون مطلقاً إلى دليل علمي يثبت تدخلها في تغير الكائن، بل إن الأمر أشبه بمَن يقول: ذلك هو التفسير الوحيد، وما عساه أن يكون غير ذلك؟

* ثم إنه يفترض بالتطور أن يكون صانع ساعات أعمى؛ فلماذا أعطى الدب القطبي لونه الأبيض ولم يعط الفقمة - التي هي فريسة الدب القطبي التقليدية - اللون ذاته؟ أليست الفقمة البيضاء أكثر قدرة على البقاء من باقي الفقمات؟ لماذا (قرر) التطور أن الدب القطبي بحاجة إلى لونه لكي يبقى

وإلىٰ شحومه وفروه وأنيابه ومخالبه وقوته و..إلخ؛ فيما قرر أنه لا يحتاج أن يكون له نسل كنسل الأرنب مثلاً؟ أليس الجين المسؤول عن كثرة النسل عند الأرنب سبباً في بقاء نوعه حتىٰ اليوم؟ إذاً لماذا لم تحصل تلك الطفرة مع الدببة القطبية أو مع النمور؟ لماذا أعطىٰ التطور بعض المميزات لبعض الأنواع دون الآخر مما راعىٰ استمرار التنوع الهائل لأشكال الحياة؟ ألا يدل ذلك علىٰ أن لصانع الساعات الأعمىٰ المزعوم ذاك طريقة يختلس بها النظر؟

لماذا يمر كل هذا مرور الكرام؟

- يقول دوكنز في صانع الساعات الأعمىٰ: «**الحيوان الرخوي السباح أو النوتيليس (Nautilus) هو مخلوق مثل جبار غريب يعيش في صدفة كما الأمونيات (Ammonites) المنقرضة.. لديه زوج من الكاميرات ذات الثقوب الدقيقة كعينين. العين بشكل أساسي لها شكل العين البشرية. ولكن بدون عدسة، والحدقة هي مجرد ثقب يسمح بدخول ماء البحر إلىٰ التجويف الداخلي للعين. والحقيقة أن (Nautilus) هو لغز قائم بحد ذاته. فما السبب في أنه مع كل مئات الملايين من السنين التي خلت منذ أن طوّر أسلافه للمرة الأولىٰ عيناً ذات ثقب دقيق؛ لم يكتشف قط قاعدة العدسة؟ فائدة العدسة هي أنها تجعل الصورة محددة وساطعة في آن واحد. ما يشغل البال بشأن الـ (Nautilus) هو أن شبكية العين لديه تشير إلىٰ أنه كان سيستفيد فائدة عظيمة حقاً ومباشرة من العدسة. الأمر يشبه نظام صوت عالي الدقة (Hi Fi) بمكبر ممتاز؛ يغذيه جهاز قديم لتشغيل الأسطوانات (Gramophone).**

النظام يصرخ طالباً تغييراً محدداً وبسيطاً. في فضاء الجينات اللامتناهي يبدو النوتيليس وكأنه يجلس علىٰ عتبة تحسن واضح ومباشر. ومع ذلك لا يتخذ الخطوة الصغيرة اللازمة لذلك. فلماذا لا يفعل؟».

* بداية: كيف يجمع دوكنز بين ما سبق وبين العبارة التي يرددها علىٰ الدوام: **أن أجسام الكائنات الحية هي تماماً بالشكل الذي نتوقعها أن تكون عليه إذا ما كانت نشأت عن طريق التطور؟**

لو أن للنوتيليس (**Nautilus**) عيناً بعدسة لقال التطوريون إنها تطورت مثل سائر الأعضاء والكائنات. فالفرد الذي ظهرت لديه الطفرة تحسن بصره فتحسنت نتيجة لذلك نوعية حياته، ولذلك نقل هو جيناته إلىٰ الأجيال التالية فيما انقرض النوتيليس (البدائي) الذي لم تتطور عينه. لكن الواقع هو أن عين النوتيليس لم تتطور ذلك التطور البسيط لما يربو علىٰ نصف مليار عام! في رأيي يعتبر هذا المثال أكثر من كافٍ لأن نطرح تساؤلاً جذريّاً في صلب نظرية الانتخاب الطبيعي:

هل حقّاً كان تطور الأعضاء والكائنات الحية حتميّاً ومحكوماً بالطريقة والقوة التي يصورها التطوريون؟

* إن معظم الأدلة التي تدعم نظرية الانتخاب الطبيعي ليست أكثر من تفسيرات محتملة لما تدل عليه الأحافير وأجسام الكائنات الحية. فحينما يقول عالم تطوري إن العين البشرية تطورت عبر ملايين السنين لأن البقاء عند أسلاف البشر كان لمَن ظهرت لديه الطفرة الجينية التي تجعل الكائن أقدر علىٰ الرؤية وبالتالي الأصلح للبقاء؛ يكون ذلك مجرد تفسير رأىٰ قائله أنه الأصلح لوصف

الحالة ولا يوجد دليل يقطع بصحته علىٰ الإطلاق. والسبب الذي يجعل الأمر شبه مسلم به من جانب التطوريين هو أن الكائنات ذات الأعين البدائية لا وجود لها اليوم. ولكن حينما يكون لدينا اليوم كائن مثل النوتيليس؛ فإننا نتحقق علىٰ الأقل أنه يمكن ولو لكائن واحد البقاء بعين بدائية. وبالرغم من أننا نعلم أن تطور ذلك العضو المهم لم يكن مهمّاً لبقاء ذلك الكائن لمئات الملايين من السنين؛ يصرّ العالِم التطوري علىٰ أن تطور عين النوتيليس إلىٰ الشكل البدائي الذي هي عليه اليوم من أشكال سابقة أكثر بدائية كانت سبباً في بقائه. ولذلك حدث الانتقاء الذي استلزم فناء الأصناف الأكثر بدائية.

منطق مثير للاهتمام: طالما أنه لم يعد لهم وجود إذاً عدم تطورهم كان سبب فنائهم. ولكن من لم تتطور عينه بقي أيضاً؟.. إذاً: تطور عينه من لا شيء إلىٰ عين بدائية كان سبب بقائه؛ أما سبب عدم تطور عينه بعد ذلك فهو أمر ما يزال العلم يبحث فيه!

* لن يعترف التطوريون أبداً بعدم إمكانية وصول أي كائن أو عضو إلىٰ شكله الحالي باستخدام نظريتهم. فهم دائماً ما يشرحون ما تمكنوا من شرحه أما الباقي فيقولون إن العلم - أي الداروينية - ما زال يعمل علىٰ شرحه ولو استمر الأمر للأبد. والسبب بالطبع هو (خوفهم من الله) لأن ما يعجز الانتخاب الطبيعي عن تفسيره لن يملأه عند الناس حسب مخاوفهم إلّا نظرية الخلق. لذلك لا يمكن لهم الاعتراف أيّاً كان الحال أن الداروينية وصلت بهم إلىٰ طريق مسدود.

- لعل أكثر الأدلة وضوحاً وصراحة علىٰ أن دوكنز والتطوريين أمثاله

باتوا يهتمون بصحة الداروينية أكثر بكثير من اهتمامهم بالعلم وما يحصل فيه من تغيرات واكتشافات هو ذلك الموقف المريب والغريب الذي لم أستطع تصديقه حينما رأيته يصدر من **دوكنز**، وهو موقفه مما كان يُعرف بالـ (**junk DNA**) أو الحمض النووي الخردة. حيث كان يُعتقد منذ مطلع القرن الحالي - وإلىٰ نهاية مشروع الجينوم البشري الضخم الذي قاده فرانسيس كولينز (**Francis Collins**)- كان يُعتقد أن ٩٨ بالمائة من الجينوم البشري معطل ولا فائدة له علىٰ الإطلاق. فيما أن الاثنين في المائة المتبقية هي فقط ما يستفاد منها كرموز للبروتينات. وبطبيعة الحال صار ذلك الاكتشاف دليلاً قويّاً علىٰ صحة الداروينية إذ أن الخالق لن يخلق جينوماً لا فائدة إلّا لجزأين بالمائة منه فقط فيما الباقي معطل ومهمل. ولكن إذا أخذنا الأمر حسب رؤية التطورية فإن ذلك الجزء المعطل ما هو إلا أرشيف يحكي قصة تطور الكائن. إذ أن تلك النسبة الكبيرة كان لها عمل مهم قامت به علىٰ أكمل وجه فيما مضىٰ ثم بقيت خردة كدليل علىٰ صحة التطورية الداروينية. كما يمكن أن ننظر إلىٰ تلك النسبة علىٰ أنها شجرة للعائلة التطورية كما شرح **دوكنز** في الكثير والكثير من المقابلات والمقالات والمناظرات.

لكنفي نهاية العام ٢٠١٢م وقبل حوالي ستة أيام من مناظرة[1] **ريتشارد دوكنز** مع الحاخام **جوناثان ساكس** (**Jonathan Sacks**) وقعت كارثة كبرىٰ [كانت بوادرها قد بدأت قبل ذلك بعشر سنوات تقريبا] فقد انتهىٰ بحث علمي مطول قام به عدد من العلماء وخلص إلىٰ أن شجرة العائلة التي اخترعها **دوكنز**

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=roFdPHdhgKQ

ودليل التطور الذي لا يقبل الشك ليس صحيحاً علىٰ الإطلاق. فالجزء الأكبر من الجينوم ليس معطلاً أبداً بل له وظائف أساسية اضطر دوكنز للاعتراف بها بنفسه في مناظرته مع الحاخام علىٰ قناة الـ(**BBC RE:Think**)! لكن ما هو المخرج من هذا المطب؟ هو التهكم طبعـاً! .. كان الحاخام هو من ذكر الموضوع ابتداءً ثم تكلم عنه **دوكنز** بعد ذلك وشرح وظيفة الجزء الذي كان يُعتقد أنه بلا فائدة [وأنه دليل علىٰ صحة التطورية] ثم ضحك قائلاً: «**وقد لاحظت أن بعض المؤمنين بالخلق يقفزون علىٰ ذلك الاكتشاف لأنهم يظنون أنه محرج للداروينية! وذلك عكس الواقع طبعـاً، إنه بالضبط ما يتمناه أي دارويني.. وهو أن نجد فائدة في العالم الحي**»!

هكذا بكل بساطة؟! دليل قوي جداً.. وشجرة عائلة تنطق بالتاريخ التطوري و.. و.. ثم ما أن يُسقط العلم ذلك حتىٰ يقول دوكنز أن هذا ما يتمناه كل دارويني؟ ثم يتهم المؤمنين بأنهم من يقفز علىٰ الاكشافات العلمية؟ أليس دوكنز هو مَن قفز ووثب وتسلق؟! الرجل أصبح لا يكترث حتىٰ لما كان يقوله هو نفسه في السابق.. فهل هناك نظرية زئبقية أكثر من ذلك؟

* يظن المرء أن سقطة بحجم تلك التي سقطها **دوكنز** في المثال السابق كانت ستعلمه بعض التواضع وربما عدم الاندفاع في إطلاق الأحكام، ولكن هيهات هيهات فما زال **دوكنز** يردد وبشكل شبه طفولي كلامه القديم عن العصب البصري وعن عصب الحنجرة في عنق الزرافة قائلاً إن خالقـاً ما كان ليخلق شيئاً علىٰ ذلك النحو، مضيفـاً أن التطورية تشرح تلك الأمثلة بسهولة كبيرة، وهو بالضبط ما كان يردده عن الحمض النووي الذي ظنه مهملاً.

واللافت أنه يتكلم دوماً كما لو أنه سيكون أول المؤمنين عند إيجاد التفسير العلمي لتلك الحالات التي لا يُعرف لها غاية حتىٰ الآن. فحتىٰ عندما يتم اكتشاف الحكمة من خلق تلك الأعضاء علىٰ تلك الصفات ما الذي سيمنع دوكنز من استخدام نفس الرد الزئبقي اللامنطقي السابق: إنه بالضبط ما يتمناه أي دارويني وهو أن نجد فائدة في العالم الحي؟ ثم أليست جميلة تلك النظرية التي يدعمها الدليل سواء وجد أم لم يوجد، يثبتها الشيء ونقيضه، النظرية التي تكون صحيحة مهما قال العلم ومهما جدّ من اكتشافات، نظرية اللعب علىٰ كل الحبال؟

- إن مَن يحاول رصد ردود أفعال الملحدين علىٰ الإنترنت حيال الكوارث المشابهة لما سبق سيلاحظ أن ثقتهم لا يمكن أن تهتز بقائدهم ولو أتىٰ بكل المتناقضات والغرائب، بل إنهم عادة ما يقتفون أثره ويأتون بدورهم بالغرائب أثناء محاولاتهم تبرير موقفهم المريب ذاك فيدافعون عنه بالطريقة التالية: علىٰ الأقل ريتشارد دوكنز يحاول أن يستخدم العلم في إيجاد إجابات علىٰ الأسئلة المطروحة فما الذي تقدمونه أنتم وآلهتكم أيها المتدينون للعلم وللبشرية؟

الحقيقة أن الملحد يعلم تماماً أن اللجوء إلىٰ الكذب والتدليس وقلب الحقائق أسوأ بكثير من الوقوف بسلبية وعدم فعل أي شيء، ولكن وكما هي العادة إن تعرض الملحد لهجوم من هذا النوع فإنه عادة ما يُغمض عينيه ثم يُلقي بكل الشبهات والحيل التي يعرفها علىٰ مُهاجمه حتىٰ تمر الأزمة. ولهذا يقول الملحد: إن لم تستطع كمؤمن أن تأتي بتفسير يشرح المسألة علمياً

[والعلمي عندهم يعني أي كلام لا يحتوي علىٰ كلمة خالق] فليس لك الحق أن تنتقد أو حتىٰ تشير إلىٰ تدليس دوكنز.. اشرح أو اترك الرجل يكذب كما شاء إذا سمحت!

* وقد تباكىٰ أحد ملاحدة الإنترنت مرة مشتكياً من هجوم بعض المسلمين علىٰ التطورية الداروينية، ولأن كلامه منقول أصلاً من مواقع إلحادية لا تكف عن ترديده ونقله ونشره فإنني سأوجزه هنا علىٰ شكل أسئلة مع ردود مختصرة عليها كي لا يتشتت ذهن الملحد كما جرت العادة.

س: لماذا تقولون بأن الداروينية قد أصبحت عقيدة؟

ج: لأمور كثيرة منها مثلاً أن جميع الكوارث التي قرأتها وستقرأ عنها في هذا الفصل لن تغير علىٰ الأرجح شيئاً من قناعاتك حتىٰ وإن لم تجد أي طريقة للرد تدافع بها عن دوكنز أو غيره.

س: لماذا لا تجرؤون علىٰ مهاجمة الحقائق العلمية "الأخرىٰ" مثل قوانين نيوتن للجاذبية مثلاً؟

ج: اسأل أنت نفسك؛ هل اضطر نيوتن في حياته أو حتىٰ أي من "مؤيدي نظريته" إلىٰ أن يفعل ما فعله دوكنز مثلاً في مسألة الحمض النووي الذي أسماه بالخردة وبلا وظيفة أو فائدة؟ لماذا يضطر دوكنز والتطوريون كثيراً إلىٰ مثل تلك التصرفات؟

س: لماذا الهجوم علىٰ نظرية علمية مثبتة؟ هل فقط لأنها تمس الدين؟

ج: أولاً/ أكمل قراءة هذا الفصل حتىٰ تعرف كيف ثبتت نظريتك أصلاً.

ثانياً/ لماذا تردد أنت نفس كلام دوكنز والتطوريين [أن التطور حقيقة ثابتة] علىٰ الرغم من أن أساليبهم في إثباتها تختلف تماماً عن أساليب بقية العلماء في المجالات الأخرىٰ؟ هل من سبب خفي يدفعك لأن تعرف حتىٰ ولو خالفت طرقهم ولكنك علىٰ الرغم من ذلك تبقىٰ موافقاً علىٰ استنتاجهم النهائي: إن التطور حقيقة مطلقة لا شك فيها؟

س: لماذا تهاجمون التطور في الوقت الذي تثبتون فيه نظرية الإنفجار الكبير مع أن الأدلة التي تثبت الأولىٰ أكثر وأقوىٰ بآلآف المرات من الأدلة التي تثبت الثانية؟

ج: يبدو أن ذهنك تشتت مرة أخرىٰ هنا كما كنت أخشىٰ.. ارجع بسرعة واقرأ الفقرة السابقة. هل أنت متأكد بأن أدلة الداروينية أكثر بآلاف المرات من الأدلة التي تثبت الإنفجار الكبير وليس بعشرات المرات فقط؟ هل أنت من قام بعدّ الأدلة ووزنها والمفاضلة بينها في كلتا النظريتين؟ أم أنك مرة أخرىٰ تردد كلام ملاحدة تطوريين من أمثال ريتشارد دوكنز؟ يحاول هذا الفصل مساعدتك علىٰ معاينة الأدلة التي يمكنك فحصها بنفسك باستخدام كلام علماء تطوريين أنفسهم؛ فما الذي يجبرك علىٰ أن تترك تلك الأمور البسيطة والواضحة وتقرر أن تثق ثقة عمياء بأولئك العلماء حينما يقولون أنهم وجدوا أدلة قاطعة علىٰ تطور البشر من فحصهم للجينوم البشري والذي لا يمكنك أنت فحصه؟ لماذا تفترض أمانتهم حينما يتكلمون فيما تجهل في حين ثبت تدلسيهم حينما تكلموا فيما تعرف؟

سؤال شبه أبدي

- في مثال النمور، يمكن استيعاب القول بأن تطور الكائنات الأخرىٰ كان دافعًا لتطورها.. فلو بقيت الأرانب والغزلان وبقية الفرائس بطيئة وسهلة الصيد لما احتاج النمر وغيره من المفترسات أن يطوروا كل تلك القوة والسرعة والحواس... إلخ.

وبأخذ ذلك بعين الاعتبار نصل إلىٰ النقطة الأهم والأكبر: لماذا وكيف وصل العقل البشري إلىٰ ما هو عليه اليوم؟

يعتقد دوكنز أن الإنسان يشترك مع قرد الشيمبانزي في جد - سلف - مشترك عاش قبل نحو ستة ملايين عام. وأنه يشترك مع الغوريلا في سلف عاش قبل قرابة العشرة ملايين عام. ويقول إن الإنسان "نزل من الأشجار" وانفصل أصله عن الشيمبانزي ابن عمومته قبل ستة ملايين سنة فأخذ كل منهما بالتطور علىٰ حدة.

* السؤال: هل كان الإنسان بحاجة إلىٰ أن يطور عقلاً استثنائيا كالذي يملكه اليوم [كثير من البشر علىٰ أية حال] حتىٰ يحافظ علىٰ بقائه علمـًا بأن القرد وهو ابن عمومته المفترض استطاع البقاء ولملايين السنين دون أن يحتاج إلىٰ أن يطور عقله ولو ليصل إلىٰ عشر معشار عقل الإنسان؟

اقرأ مجدداً مثال النوتيليس.

- ماذا لو أن مخ الإنسان (أذكىٰ الكائنات) كان قد تطور في جسد الدلفين مثلاً (وهو ثاني أذكىٰ الكائنات الحية حسب ما يرىٰ الكثيرون) فيما تطور جسد الإنسان بمخ الدلفين؟ ألن يتمنىٰ عقل الإنسان وهو في جسد

الدلفين أن يتحرر من جسده ويحصل علىٰ جسد حيوان محظوظ يعيش علىٰ اليابسة غير مستفيد من كل مميزات جسمه المثالي وبدون أي إدراك منه لمدىٰ ملاءمة جسده لسيادة الكوكب بلا أدنىٰ منافسة؟ بل ألن يتمنىٰ الحصول علىٰ جسد قرد أو نمر أو فيل أو ما شابه لمجرد العيش علىٰ اليابسة والاستفادة قدر الإمكان من قدراته العقلية في استغلال خيرات الأرض؟

هل كانت المصادفة هي السبب في إعطاء البشر العقل الذي يمكّنهم من استغلال مختلف المواد الموجودة في العالم؟ وهل المصادفة هي التي جمعت للإنسان العقل الاستثنائي مع الجسد المثالي الذي يُمكِّنه من الإمساك بالأشياء وحملها واستخدامها كما لا يمكن لغيره من المخلوقات أن يفعل؟ هل الأمر محض مصادفة؟ أم أن الله ﷻ خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرّمه وفضله علىٰ كثير مما خلق تفضيلاً، وسخّر له دون غيره ما في الأرض؟

- نجد أنه في الوقت الذي بقي فيه الشعر يغطي جسد القرد؛ انحسر الشعر عن جسد الإنسان وتراجع حتىٰ صار يغطي الرأس فقط بالإضافة إلىٰ مناطق صغيرة من الجسم كالحواجب. ونلاحظ أن الشعر كان (أكثر انحساراً) عند الإناث منه عند الذكور (وكأن الجمال من مقاصد التطور) مع أن ذلك الحال يتعارض كلية مع فرضية الانتخاب الجنسي السابقة الذكر والتي شرحها دوكنز في "صانع الساعات الأعمىٰ" مستخدماً مثال طائر الهويد الإفريقي الطويل الذيل.

ومرة أخرىٰ يفترض بصانع ذلك أن يكون أعمىٰ لا قصد له ولا غاية.

مفاجأة يخفيها التطوريون

- لطالما تجادل الخلقيون مع التطوريين حول قوة الأدلة الأحفورية المتوفرة في إثبات إحدىٰ النظريتين. القانون الأساسي هو أن للعلم الكلمة الطولىٰ في هذا المجال. فإن أثبت التطوريون أن للإنسان - مثلاً - سلفًا سابقًا أقل تطوراً فإن نظريتهم صحيحة. وهو أمر يعتقد معظم الملاحدة والتطوريين أنه تحقق وبشكل متكرر لا يدع مجالاً للشك. مع أن من علماء التطوريين مَن لم يتورع عن فبركة أدلة وتزييف أحافير لإثبات صحة النظرية. **(لماذا احتاجوا إلىٰ فعل ذلك؟)**.

أما ما يسقط النظرية [دون أن يثبت صحة القول بالخلق] فعدة أمور منها ما ذكره **تشارلز داروين**[1] (**Charles Darwin**) نفسه صاحب النظرية، من أنه في حال ثبتت استحالة تطور عضو حي معين تدريجيًا إلىٰ شكله الذي هو عليه من أشكال أخرىٰ أكثر بساطة تنهار النظرية. وهو ما يعرف بالـ (**Irreducible complexity**) أو **التعقيد غير القابل للاختزال**. وهذا أمر وافق التطوريون أباهم الروحي عليه ولكن علىٰ مضض، ولا يكاد أحدهم يذكر تلك المقولة دون أن يؤكد علىٰ أمرين: الأول أن عضواً مماثلاً لم يتم

(١) تشارلز داروين هو عالم تاريخ طبيعي بريطاني وإليه ترجع نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي والتي ظهرت رسميًا في كتابه الأشهر أصل الأنواع (On the Origin of Species) في ١٨٥٩م، وقد تقلب في حياته في اللادينية والكفر بسبب أفكاره المستبعدة لتدخل الخالق ﷻ إلىٰ أن مات في الغالب لاأدريًا متشككًا وكما كتب ذلك في واحدة من أواخر رسائله ١٨٧٩م ووصف فيها نفسه بأنه أقرب إلىٰ Agnostic

اكتشافه حتىٰ اليوم مما يدل علىٰ صحة النظرية. والثاني أنه حتىٰ في حال تم اكتشاف ذلك العضو وسقطت الداروينية - لا سمحت الطبيعة - فإن البديل لا يمكن أن يكون نظرية الخلق.

أجدد هنا الطلب الذي سبق وطلبته من عامة الملحدين، وهو مجرد الاعتراف بصعوبة التخلي عن أي نقطة لمصلحة الخصوم حتىٰ وإن فصل فيها العلم.

* يفترض بالتطوريين أنهم يؤمنون بما يلي: في سلسلة التطور علىٰ مستوىٰ العضو الواحد إذا ثبت بشكل قطعي أن أحد الأعضاء المعقدة لأي كائن حي لا يمكن أن يكون قد نتج عن طريق التطور التدريجي كما تصفه النظرية فإن الداروينية تسقط من أساسها ويثبت علمياً وعملياً عدم صحتها.. جميل جداً..

لكن لننظر الآن إلىٰ هذا الكلام الخطير في وهم الإله والذي ينقله ريتشارد دوكنز عن التطوري الآخر **الكساندر غراهام كيرنز سميث (Alexander Graham Cairns-Smith)** الكيميائي الاسكتلندي؛ في حديثه الذي شبّه فيه نتاج عملية التطور بالقنطرة الحجرية التي هي عبارة عن بناء حجري علىٰ شكل قوس (**Arch**) يقف بدون الاستناد علىٰ أي دعامة:

«في كتابه [سبعة أدلة علىٰ أصل الحياة] (seven Clues to the origin of life) يطرح الكيميائي الاسكتلندي أ.غ كيرنز سميث نقطة إضافية، مستخدماً التشبيه بالقنطرة: قنطرة منتصبة من الأحجار المقطعة يمكن أن تكون بناء ثابتاً بدون ملاط (أي مادة تلصق أجزاءها بعضها ببعض

كالإسمنت). لكنها معقدة بشكل لا يمكن إنقاصه؛ إذ إنها ستنهار لو أزيل أحد أحجارها. كيف إذاً تم بناؤها في المقام الأول؟....»[1] إلىٰ أن قال: **«في التطور أيضاً، العضو أو البناء الذي تنظر إليه قد يكون أحد أسلافه استخدم سقالة (رافعة) وقد اختفت بعد ذلك»**!

مرة أخرىٰ؛ كأصل: لو ثبت علمياً أن التطور لم يكن السبب في ظهور عضو حي معقد للوجود والتشكل بشكله الحالي فإن النظرية تسقط برمتها، هذا هو كلام **داروين** الذي وافقه عليه دوكنز وعلماء التطورية قديماً وحديثاً. ولكن مَن يعيش حياته كلها مفترضاً صحة نظرية ما خصوصاً إن كانت من هذا النوع لا يقف مكتوف الأيدي تاركاً إيّاها في مهب الريح حتىٰ يأتي شخص ويدمرها بالكلية؛ بل إنه يحاول استباق الأحداث. وهذا ما ستفعله بالضبط إن كنت في مكان **دوكنز** لأنك تدرك كارثية النتائج المترتبة علىٰ مقولة **داروين** والتي قد تؤدي فعلاً إلىٰ إبطال تلك النظرية المصيرية.

* من وجهة نظر **دوكنز** كما يبدو مما سبق فإن الحل هو الآتي: قم بواجبك المهني ووافق العالم (داروين في هذه الحالة) علىٰ صحة القول ببطلان النظرية إن ثبت علىٰ الوجه الذي ذكره (التعقيد غير القابل للاختزال)، فقط أضف علىٰ ذلك عبارة: ولكن لا يلزم أن يكون ذلك صحيحاً!.. ذلك لأن ترجمة تحليل القنطرة الحجرية هو:

ربما أن ما يظهر كعضو معقد غير قابل للاختزال هو في الحقيقة عضو

---

(1) The God Delusion p. 156.

متطور كسائر الأعضاء، يتميز عنها فقط بأنه احتاج أثناء تطوره لأداة اختفت مع الزمن بعد أن أدت عملها ودون أن تترك أثراً علىٰ وجودها في الماضي.

* لم يتبنَّ **دوكنز** ذلك القول ولكنه فقط أورده كأحد التفسيرات المحتملة لأي عضو معقد غير قابل للاختزال قد يجده العلماء مستقبلاً. ولكن مجرد الاستعداد لتقبل هذا النمط من التفكير ألا يفضح النوايا المخبأة؟ كيف يمكن أن نستمر في النقاش المنطقي إذا فتحنا الباب لكل صاحب نظرية لا أصل لها أن يقول ربما كان الدليل علىٰ صحة نظريتي موجوداً ثم اختفىٰ ولم يعد موجوداً ولكن ذلك لا يعني بطلانها؟

أقولها مجدداً.. يجب أن يعترف الملاحدة أن الإيمان الكامل بنظرية كنظرية التطور وأن العيش علىٰ افتراض صحتها يجعل التخلي عنها أمراً بالغ الصعوبة.

وإذا كان هذا صعباً علىٰ عامة الملحدين؛ فللقارئ أن يتصور ما يعنيه ذلك بالنسبة لمَن كانت تلك النظرية وتوابعها مصدراً لشهرته وثرائه. لا شك أن المسألة ستتحول عنده إلىٰ حياة أو موت وسيدافع عنها بالباطل قبل الحق.

* نجد الملحدين أمثال **دوكنز** يستهزئون بمنطق النصارىٰ [الدائري] حين يستدلون علىٰ صحة كتابهم المقدس وأنه كلام الله بالكتاب المقدس ذاته؛ فالله قال في الكتاب المقدس إن الكتاب المقدس هو كلامه الحق فلا بد أن يكون ذلك صحيحاً. وذلك بلا شك منطق غريب، فكان لزاماً علىٰ الملحدين أن يأتوا بمثله!

إن ثبت أن ساق الضفدع مثلاً لا يمكن أن تكون قد تطورت إلىٰ شكلها

الحالي إلّا بوجود عامل مساعد في الماضي فإن ذلك يثبت أن ذلك العامل كان موجوداً. كيف؟ لأننا جميعاً نعلم أن التطورية الداروينية صحيحة.. وهي لا تكتمل بدون ذلك العامل؛ إذاً.. كان ذلك العامل موجوداً ثم اختفىٰ. هيا.. أثبت عدم وجوده إن أمكنك ذلك!»[1].

عزيمة وإصرار

- لقد تعجب دوكنز في وهم الإله أن المؤمنين بالخلق يقولون أن المفترسات خلقت أو (صممت) لتصطاد وتفترس. كما أن الكائنات التي تصطادها صممت أجسادها للفرار أو الاختباء. ثم تساءل قائلاً: **مع مَن يقف الإله؟**

هذا السؤال في رأيي سؤال لا يسأله إلا ملحد قد عزم وقرر سلفاً أنه سيموت ملحداً كما صرح دوكنز في أكثر من مناسبة. وأود هنا أن أحذر المتشككين من الانسياق وراء الملحدين في هذا النمط من التفكير. لأنه يسهل علىٰ الملحد أن يسأل مثل ذلك السؤال ولكنه لا يفكر ولو للحظة في البديل المحتمل. فلو افترض الملحد وجود خالق لتلك الكائنات - وهو ما لا يفعله أبداً - كيف كان ليختلف شكل تلك الكائنات عمّا هو عليه الآن؟ إن افتراض الملحد أن الخالق يجب أن (يشجع) أحد المتنافسين علىٰ حساب الآخر يعني انقراض أحدهما. فإما أن يقضي المفترس علىٰ الكائنات الأخرىٰ تماماً

---

(١) يُسمىٰ ذلك بمغالطة الاستدلال الدائري (Circular reasoning).

فتنقرض هي أولاً ثم يتبعها هو بالموت جوعاً. أو أن تتفوق الفرائس في الهرب من المفترس فيموت هو جوعاً. أو أن يقوم الخالق بتصميم الصياد والفريسة دون أن يعطي أياً منهما القدرات التي يتمتع بها. أي أن يكونا أقل (تطوراً) ومقدرة مما هما عليه الآن. عندها ستتحقق المعادلة ولكن بدرجة أقل من الدقة والتصميم والـ(جودة). والغريب أن ريتشارد دوكنز نفسه قد شرح ما سبق دون حرج في بعض كتبه مثل "وهم الإله" الذي أورد فيه تلك الشبهة، لكن دوكنز بالطبع لا يريد أن يعترف بالباقي: إن أراد الإله أن يظهر عظيم قدرته في تلك المخلوقات فإنه يجعل الخلية الحية الواحدة التي تكوّن أياً منها آية في الإعجاز؛ فضلاً عن عضو كامل أو الجسم بأكمله.

- إن من المقولات التي يُكثر التطوريون من استخدامها في تسويق نظريتهم بين العوام هي مقولة: **الإنسان أقرب للقرد من قرب الحصان للحمار**. ومَن يقرأ بداية الفصل الأول من كتاب صانع الساعات الأعمىٰ لريتشارد **دوكنز** سيعرف أن الأسماك أقرب للإنسان من قربها للسلطعون البحري.

إذاً، استخدام تلك العبارات إنما هو للتأثير المعنوي أكثر منه للنقاش العقلي.

دائما .. خلاصة لا تتوافق مع التفاصيل

- إن مقولة دوكنز: «**إن أجسام الكائنات الحية هي تماماً بالشكل الذي نتوقعها أن تكون عليه لو كانت قد نشأت عن طريق التطور**» الهدف منها هو

التظاهر بأن التطورية الداروينية قد تمت دراستها وإثباتها بشكل أكبر وأدق بكثير مما قد يعتقد الإنسان العادي. ولكن.. ماذا إن أتىٰ عالم ما في المستقبل وأثبت علىٰ سبيل المثال من تتبع الطفرات المفترضة علىٰ كثير من الكائنات لا سيما الثدييات أنه كان يفترض بها مثلاً أن تكون ذات عين واحدة كبيرة تتوسط الوجه؟ أو ذات فتحة للتنفس في مؤخرة الرأس عوضاً عن الأنف.. أو أي شيء آخر مخالف للواقع؟ ماذا لو ثبت مثلاً من تتبع بعض أشكال البكتيريا المائية البسيطة أن تطورها عشوائيًا لن يصل بها إلىٰ درجة أي من المخلوقات المعروفة اليوم، بل أن تطور أعضائها الداخلية والخارجية كان سيتم بطريقة فوضوية ليس فيها أدنىٰ ترتيب؟ ماذا لو أن تلك الدراسة أخذت بعين الاعتبار - ولأول مرة - جميع العوامل التي قد تؤثر في تطور ذلك الكائن مثل: البيئة، الغذاء، الجاذبية الأرضية، أنواع الحياة المحيطة ونمط حياة الكائن نفسه وغير ذلك من أمور، ثم خلصت إلىٰ أن الترتيب وحده لأعضاء ذلك الكائن يثبت عدم صحة القول بالتطور العشوائي؟

يقول دوكنز في أول الفصل الرابع من "الجين الأناني" **(The gene machine)**: «**تطورت الحيوانات والنباتات إلىٰ أجساد متعددة الخلايا موزِّعة نسخة كاملة من كل الجينات علىٰ كل خلية. ونحن لا نعرف متىٰ أو لماذا أو كيف حدث ذلك بشكل مستقل**». نرىٰ هنا أن دوكنز لا يمانع الإعتراف بأنه يجهل أمراً بهذا الحجم ولكنه في نفس الوقت يهاجم من يشكك في أصغر تفصيل من تفاصيل تطوريته التي يريد إثباتها بالقوة باستخدام طرقه الغريبة.

* حينما تكلم دوكنز في صانع الساعات الأعمىٰ عن الخفافيش وعن

استخدامها لـ (السونار) أو تحديد الموقع بالصدىٰ كبديل للرؤية بالعينين، قال إن الحديث عن الخفافيش بذلك الشكل الذي يغلب عليه التعميم ليس واقعيًا. فالخفافيش تستخدم ذلك (السونار) بطرق مختلفة جذريًا. ثم قال: «**يبدو أنها قد ابتكرتها علىٰ حِدة وبصورة مستقلة، تمامًا مثل ما نشأ الرادار علىٰ نحو مستقل عند البريطانيين والألمان والأمريكان**». إذًا؛ الخفافيش التي تطورت في كهوف أمريكا الشمالية مثلاً وصلت إلىٰ النتيجة نفسها التي وصلت إليها الخفافيش في المناطق الاستوائية ولكن عبر طرق مختلفة. لو أننا افترضنا مثلاً إن أصل كل الثدييات يعود إلىٰ كائن بحري بدائي معين ثم قلنا إن شكل ذلك الكائن كان هو السبب في تطور الثدييات إلىٰ شكلها الحالي لكان الأمر أسهل بكثير. ولكن أن تتطور الكائنات بعضها بمعزل عن بعض ثم (تصرّ) مثلاً علىٰ تطوير عينين علىٰ الجانبين بدلاً من واحدة في الوسط فهو أمر يفسره الداروينيون بمقولة: بما أن ذلك هو الواقع إذاً لم يكن هناك بُدّ من حدوثه. وذلك علىٰ طريقة **جون ليزلي (John Leslie)** التي ذكرها **دوكنز** في وهم الإله[1] في مثال الرجل الذي يقف أمام فرقة إعدام من عشرة قناصة يطلقون النار عليه في وقت واحد ومن مسافة قريبة ويخطئ جميعهم الهدف. وما أن يبدأ الاستغراب والتساؤلات حتىٰ يرد الرجل ببساطة أن ما حدث كان لازم الحدوث ولم يمكن لشيء آخر أن يحدث، والدليل القاطع هو أنه ما يزال واقفًا.

---

(1) The God Delusion p. 173.

هذا هو جذر البلاء

- أختم بكلام دوكنز في حاشية كتابه الجين الأناني هامش الفصل الحادي عشر: «إن رهاني القائل بأن كامل الحياة في كل أنحاء الكون يجب أن تكون قد نتجت عن تطور دارويني؛ قد تم شرحه وتفصيله الآن في مقالي «الداروينية الكونية» وفي الفصل الأخير من صانع الساعات الأعمىٰ. وقد أثبتّ في هذا السياق أن جميع البدائل التي تم اقتراحها عن الداروينية تعجز من حيث المبدأ عن تفسير التعقيد المنظم للحياة. علماً أن المحاجة عامة ولا ترتكز علىٰ حقائق معينة في الحياة كما نعرفها. وقد انتقد هذه الحُجة علماء يفتقرون إلىٰ الابتكار إلىٰ حد الاعتقاد بأن الكد في العمل علىٰ أنبوب مختبر ساخن (أو حذاء بارد موحل) هو الطريقة الوحيدة لتحقيق اكتشاف علمي. واشتكىٰ أحد المنتقدين من أن حجتي 'فلسفية' وكأن في ذلك إدانة كافية. فسواء كانت حجتي فلسفية أو لا، تبقىٰ الحقيقة أن لا هو ولا أحد غيره استطاع أن يجد عيباً فيما قلته. ومن حيث المبدأ يمكن لحُجج من نوع حجتي؛ بعيداً عن كونها معزولة عن العالم الواقعي أن تكون أقوىٰ من الحُجج المرتكزة علىٰ بحث واقعي محدد. فتحليلي في حال كان صائباً، يخبرنا بشيء مهم عن الحياة في جميع أنحاء الكون. أما الأبحاث المخبرية والميدانية، فتخبرنا فقط عن الحياة علىٰ الأرض والتي أخذنا منها العينة».

وهذه يا سادة هي الأدلة التي يتحدث عنها التطوريون. إن لم تستطع إثبات خطأ ما أقول فذلك يعني أنه صحيح.. ثم إن حاصل جمع ذلك الصحيح مع أمثاله يكون نظرية كاملة متكاملة تحكي تفاصيلها كل خلية حية

في الكون!

* مثل هذه هي الطرق العلمية التي يستخدمها علماء الملاحدة حينما يؤكدون أن الزمن المتاح كان كافياً لأن تظهر الحياة علىٰ الأرض مصادفة وبشكل عشوائي قبل مليارات السنين، وأن الزمن كان كافياً أيضاً لأن يصل الحمض النووي (DNA) إلىٰ التعقيد الرهيب الذي هو عليه اليوم، وهو الأمر الذي يتعامىٰ و يُصادق عليه عوام الملحدين الذين يعيشون حياتهم كلها باستخدام المبدأ العظيم الذي يقول: أنا أؤمن بما أستطيع رؤيته وبالعلم والمنطق وإن تعارض ما أريده مع ذلك فإنني أغمض عيني قليلا وأثق بالملحدين الآخرين إلىٰ أن تمر الأزمة..

وعلىٰ الرغم من أن هذا النوع من المنطق يعتبر معجزاً وغير قابل للرد؛ إلا أنني شخصيّاً لا أمانع أن يدافع الملحد عن نظريته المحبوبة بكل جوارحه.. لكن ادّعاء الحياد والعلم والمنطق هو ما يجعلني أفكر:

فلا والله ما في العيش خير * ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

إذا لم تخش عاقبة الليالي * ولم تستحي فافعل ما تشاء

* * *

نقاط في مسألة وجود الشر

أريد هنا وباختصار أن أذكر نقاطًا قد تكون مفيدة في الوصول إلىٰ إجابة علىٰ السؤال القديم: **إذا كان للكون إله رحيمٌ فبماذا نفسر وجود كل هذا الشر في العالم اليوم؟**

- إن مشكلة الملحدين في هذه النقطة بالذات هي مزجهم المنطق بالكثير من العاطفة وذلك بسبب أن غايتهم من طرح السؤال هي نفي وجود الإله وليست البحث عن إجابة.

- يُنقل عن الفيلسوف الإغريقي إبيقور (**Epicurus**) أنه تلفّظ بما يلي:

«هل يريد الرب أن يمنع الشر ولكنه لا يقدر؟ إذاً هو ليس مطلق القدرة

هل يقدر ولكن لا يريد؟ إذاً هو شرير.

هل يقدر ويريد؟ فمن أين أتىٰ الشر إذاً؟

هل هو لا يقدر ولا يريد؟ لماذا ندعوه ربًا إذاً؟» وقيل: **«لماذا نستمر في دعائه؟»**.

طبعًا هذا طرح بلغ من السطحية والاختزال مبلغا يؤذي العقل والجسد..

ربما يمكن إيجاز النقاط الهامة في مناقشة هذه القضية في ما يلي:

* أن الأصل في الحياة هو الخير أما الشر فهو أمر طارئ. فالصحة هي الأصل والمرض أمر طارئ. الأصل أن الأرض مستقرة ثابتة والزلازل أمر طارئ.

* لا يمكن علىٰ الإطلاق فهم معنىٰ الخير بدون وجود الشر. فلولا المرض مثلاً لما عرف الإنسان معنىً للصحة. وهذا أمر يُعرف بداهة ومنطقاً.

- يفكر كثير من الملحدين اليوم بالطريقة التالية:

- إذا كان الإله موجوداً فهو إله شرير

- لا بل هو إله رحيم لأن...

- كيف يكون رحيماً وهو غير موجود أصلاً؟!

- افترض معي جدلاً أنه موجود حتىٰ نناقش القضية المطروحة. حسناً.. ذلك الإله..

- أي إله؟!.. كلامك غريب عجيب.. قلت لك لا وجود للآلهة!

لو افترض الملحدون للحظة وجود الخالق لعرفوا حقيقة الطمأنينة والسعادة التي يشعر بها كثير من المؤمنين من ذوي المصائب. لكن بسبب طريقة تفكير الملحدين تجد أن تفسير الأمر لديهم لا يتعدىٰ كونه وهماً يقنع المؤمن به عقله فيستجيب الجسد لخداع العقل. ولكن ماذا لو كان الخالق موجوداً حقاً وهو الذي يكافئ المؤمنين علىٰ صبرهم ورضاهم بقضائه بأن يعطيهم راحة وطمأنينة تجعلهم رغم بلائهم أسعد بكثير ممَن يشفقون عليهم؟ ألا يغير ذلك كثيراً من رؤيتنا للشرور التي تنتشر في العالم اليوم؟

* عن أمّ العلاء ﵂، قالت: عادني رسول الله ﷺ وأنا مريضة فقال: **«أبشري يا أمّ العلاء؛ فإنّ مرض المسلم يُذهِب الله به خطاياه كما تُذهِب النار خبث الذهب والفضّة»**[1]. وفي رواية (خبث الحديد). وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﵄، عن النبي ﷺ قال: **«ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذىً، ولا غم، حتىٰ الشوكة يشاكها إلّا كفّر الله بها من خطاياه»** متفق عليه واللفظ للبخاري.

* لا يُلقي الملحدون عند مناقشة هذه القضية أي بال للكمّ ولا للنوع إن صح التعبير. فرياضيًّا؛ أي عدد تتم قسمته علىٰ عدد لا نهائي يساوي الناتج صفراً. لذلك فإن مقارنة عدد السنوات التي يقضيها الإنسان في الدنيا بالخلود في الجنة أو النار لا تساوي شيئًا، وهذا من حيث الكم.. أما النوع فلا أبلغ في شرحه من الحديث عند ابن ماجه، حديث أنس بن مالك ﵁ حين قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتىٰ يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار، فيقال: اغمسوه في النار غمسة، فيُغمس فيها، ثم يقال: أي فلان، هل أصابك نعيم قط، فيقول: لا ما أصابني نعيم قط. ويؤتىٰ بأشد المؤمنين ضراً وبلاءً، فيقال: اغمسوه غمسة في الجنة، فيُغمس فيها غمسة، فيُقال له: أي فلان، هل أصابك ضر قط أو بلاء، فيقول: ما أصابني قط ضر ولا بلاء»**[2]. ولذلك قالوا: إن كل نعمة دون الجنة فانية وكل مصيبة دون النار عافية.

---

(١) أخرجه أبو داود، والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، يؤتىٰ يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفار (٤٣٢١).

* كثير من الأمور التي يحسبها الناس خيراً لهم ليست كذلك في الحقيقة، ولا ما يحسبونه شرّاً هو شرّ في الواقع.. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦).

والأدلة كثيرة جدّاً علىٰ ضعف القدرة البشرية عن التنبؤ بما يخبئه المستقبل، لذلك يستحيل علىٰ الإنسان أن يجزم بأن ترقيته في وظيفته ستكون خيراً محضـاً، أو أن إصابته بالزكام يوم زفافه كانت شراً لا شك فيه.. الإنسان بطبعه قصير النظر وبشكل لا يصدق حينما يتعلق الأمر بالمصائب التي تصيبه أو تصيب مَن حوله.

* إذا أحبّ إنسان إنسانـاً آخر ووثق في حكمته وحسن تصرفه؛ فإنه بطبيعته يلتمس له كافة الأعذار إن صدر منه ما قد يبدو في ظاهره عملاً ضارّاً أو غير ذي نفع. وقد يصرّ علىٰ أن أمه أو أباه أو فلانـاً من الناس لم يفعل ذلك الفعل إلّا لسبب وجيه، ويقرر أن لا يحكم علىٰ المسألة إلّا بعد أن يستمع إلىٰ دوافع ذلك الشخص. مشكلة الملحد هي أنه سيئ الظن بخالقه ﷻ، ولذلك تجد أن قصة طفل مصاب بمرض عضال تعتبر أكثر من كافية بالنسبة إليه حتىٰ يمارس سوء ظنه ذاك مغلِقـاً قلبه وعقله.

* أحيانـاً يصيب الناس شر قليل ليجنبهم الله شرّاً أكبر. يقول ﷻ في سورة الروم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١). ويقول سبحانه في السجدة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١). والحقيقة أن هذا الأمر أيضـاً مشاهد في حياة الأفراد والجماعات علىٰ حدٍّ

سواء، فكم من إنسان وكم من أمة خرجوا من المحن والحروب أقوىٰ بكثير مما كانوا عليه من قبل. بل إن بعضهم يصف محنته بأنها كانت أفضل ما يمكن أن يحدث له في تلك المرحلة من حياته. هذا هو القدر الذي نعرفه.. يبقىٰ أن نعرف ما سيكون عليه الحال لو لم تحدث تلك المصيبة ثم نقارن بين الحالين عوض أن نلقي بالأحكام علىٰ عواهنها دون رؤية ولا تروٍّ.

* كثير من الكوارث التي تحل بالإنسان والحيوان في العصر الحديث سببها الإنسان نفسه وبدرجة لا يعرفها معظم الناس. بل إن من الأفراد والمؤسسات والحكومات مَن يكسب الثروات من وراء تلك المصائب ولذلك يعمل ويحرص علىٰ استمرارها، وما تفعله اليوم شركات الأسلحة والتبغ وبعض شركات الأدوية خير مثال علىٰ ذلك.

* ثم تأتي مسألة الاختبار والاختيار والإرادة الحرة.

نعلم جميعنا أن الابتلاء والاختبار يقتضي وجود الإرادة (الكاملة) عند الإنسان.. فماذا لو اختار إنسان أن يحمل السلاح ويقتل إنساناً آخر فما الذي يجب أن يحدث حسب رأي الملحدين اليوم؟ عليه أن يتجمد في مكانه! ليس هذا فقط.. إذ أن التعرض للقتل ليس هو الشر الوحيد الموجود في العالم.. فالموت في حد ذاته أياً كانت مسبباته حتىٰ ولو كانت الشيخوخة يعتبر شراً تحاول جميع المخلوقات دفعه بكل ما تستطيع. إذاً.. وجود الإله الرحيم يقتضي الخلود للجميع.

قد يبدو هذا الكلام سخرية أكثر منه رداً؛ ولكن الحقيقة أنه لا يمكن الجمع بين كون الدنيا داراً للاختبار وبين خلوّها من الشرور بشكل كامل..

فلو اختفىٰ الشر بشكل كلي لتحولت الدنيا إلىٰ جنّة لا شرور فيها فلا يكون بذلك مغزىٰ من وجودها أصلاً. كذلك لا بد أن ينتج عن الإجابات الخاطئة قدر ولو يسير من الشر.

* كثيراً ما يتعامل البشر مع الموت كما لو كان خياراً واحداً من عدة خيارات متاحة. فحينما يموت أحباؤهم في حروب أو حوادث أو غير ذلك؛ يتصرفون وكأن خلود مَن ماتوا كان خياراً مطروحاً. ولذلك يجزع البعض ويسخطون علىٰ القدر الذي أخذ منهم ما كان يُفترض به أن يبقىٰ. ولا يرون رحمة في الإله الذي يسمح بذلك.

* لعلي هنا أذكّر مَن يرىٰ في وقوع المصائب مبرراً لترك الدين بقول الله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢٠). فمَن يرىٰ ويعرف كل شيء سبحانه يريد من الناس الصبر علىٰ قضائه ثم يقول: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠). ويقول علي بن أبي طالب ﷺ: «**ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد**»[1]. ثم لنتأمل كل كلمة من قول الله سبحانه: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٦).

- ما هو أشد بلاء قد يتعرض له أي إنسان؟

---

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في (الصبر والثواب عليه) ص (٢٤).

* رُزِق آخر الرسل ﷺ بسبعة من الأبناء والبنات، ماتوا جميعـاً خـلال حياته باستثناء فاطمة التي لحقت به بعد أقل من مائة يوم علىٰ الأرجح.

* تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إن النبي ﷺ كـان يـردد حين حـضرته الوفاة: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**». وفي رواية البخاري عـن أنـس أن فاطمة كانت تقول وقد رأت المرض يشتد علىٰ النبـي: «**وا كـرب أبـاه**». لكـن الرسول طمأنها قائلاً: «**ليس علىٰ أبيك كرب بعد اليوم**»[1].

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنا نتحدث أن رسول الله ﷺ لا يموت حتـىٰ يُخيّر بين الدنيا والآخرة قالت: فلما كان مـرض رسـول الله ﷺ مرضـه الـذي مات فيه عرضت له بُحّة فسمعته يقول: «**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**» قالـت: فظننته خُيِّـر حينئذ[2].

تلك هي الطريقة التي تعامل بها رسول رب العالمين مـع الفـترة القـصيرة التي عاش فيهـا علىٰ ظهر هـذا الكوكـب، ولا يمكـن لأي ملحـد أو مـادي أن يتخيّل ما يعنيه ذلك، أو الأثر الذي تتركه مثل تلك النـصوص مـن سيرة حيـاة الرسول علىٰ نفوس المؤمنين به.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتـاب المغـازي، مـا تـرك رسـول الله ﷺ دينـارا ولا درهمـا ولا عبدا ولا أمة (٤١٩٣).

في مواجهة أديان العالم

رغم أن مسألة تفضيل أحد الأديان علىٰ الآخر هي مسألة لا منطقية ومرفوضة من قِبَل ريتشارد دوكنز وكثير من ملحدي العصر، إلا أنهم عمليّاً يفاضلون بين الأديان تبعاً للضرورة، وعادة ما يكون التفضيل علىٰ حساب الإسلام بالذات. وهم يستخدمون الفكرة ذاتها عند محاولتهم نفي وجود الخالق، فوجود الخالق عندهم يماثل وجود أبطال قصص الأطفال، لكنهم في الوقت نفسه يقولون إنه في حال كان للكون خالقٌ فمن المؤكد أنه سيكون أعظم من الكون الذي خلقه، وأنه سيكون مطلق القدرة والعلم وغير ذلك من صفات.. فهو إذاً استهزاء سطحي نظري مخالف تماماً للواقع العملي.

* قال دوكنز في عدد من المناسبات إنه لا يوجد سبب يدفعنا إلىٰ تفضيل دين علىٰ آخر؛ لكنه لا يتوقف عن اتهام الإسلام خاصة بالعنف والتقليل من شأن المرأة، فيما يعتبر تفضيلاً واضحاً للأديان الأخرىٰ علىٰ حساب الإسلام.

وسواء قصد دوكنز تفضيل التعاليم التي أتىٰ بها الدين أو قصَد التفضيل علىٰ أساس الأكثر قابلية للتصديق فإن الأمرين يمكن اختبارهما بسهولة. لذلك ومرة أخرىٰ فإن العبارة المستخدمة في حد ذاتها لا أساس لها من

الصحة، وكل ما يُقصد بها هو التعميم والإساءة إلىٰ كافة الأديان دون الاضطرار إلىٰ الخوض في التفاصيل.

* يُلاحظ علىٰ الملاحدة أنهم لا يكترثون مطلقًا بماهية الأديان وما تحويه. فتجد أن الواحد منهم يفكر بمنطق: توجد آلاف الأديان في العالم اليوم كلها يعارض بعضه وكلها يدّعي أنه مختلف عن البقية والواقع أنه لا فرق بين أي منها. ولو قرر الملحد أن يعتنق أحد تلك الأديان فإن احتمال اختياره للدين الصحيح (إن كان هناك دين صحيح) لا يتجاوز الواحد علىٰ الألف أو حتىٰ أقل من ذلك.

فما الذي يدفعنا لتفضيل دين على آخر؟

أولاً: يجب أن يُعلم أن الركيزة الأساسية لأي دين والتي تحدد شأنه وقيمته وهويته هي مفهوم الإله؛ ماهيته وصفاته عند أتباع ذلك الدين.

يتفق المسلمون مع الملاحدة علىٰ أن الخالق يجب أن يكون أعظم من مخلوقاته. ولو أننا اختبرنا الأديان الموجودة في العالم اليوم بذلك المعيار فلن يتجاوز ذلك الاختبار إلا جزء منها فقط. فنحن نعرف مثلاً أن كثيراً من الوثنيين اليوم يقومون بصناعة آلهتهم ثم يعبدونها ويقدمون لها القرابين، وهم الذين يقومون بخدمتها وحراستها. وهذه النقطة بالذات هي ما يفشل الملاحدة دائمًا وعن قصد في تطبيقه. فعبادة الحشرات أو الفئران أو الأصنام عندهم لا تختلف بأي شكل من الأشكال عن عبادة الإله الأعظم الذي في السماء. ودافعهم لذلك واضح.

ثانياً: لا يمكن أن يكون الدين الصحيح الذي ارتضاه خالق الكون لعباده أن يكون ديناً "منقرضاً". وهذا كلام عام، لكنني أحب أن أشير بشكل خاص إلىٰ زوس (Zeus) كبير الآلهة عند الإغريق؛ والذي لا يمكن لملحد أن يتكلم عن الخالق أو الأديان لدقيقتين متواصلتين دون أن يأتي علىٰ ذكره.

زوس هذا كما ذكرت كان كبير آلهة الإغريق، حيث إنه كان لديهم كوثنيين إله لكل شيء تقريباً؛ إله للحرب وآخر للخصوبة وثالث للمطر ورابع للجمال.. إلخ.

المهم أن زوس كان محط الإجلال والتقديس عند قدماء اليونانيين لبطولته وقوته، إذ تقول أساطيرهم إنه أصغر أبناء اثنين من الآلهة الجبابرة، وكان إخوته في عداد الأموات بعدما ابتلعهم أبوهم فور ولادتهم، ولكن الأم احتالت علىٰ الأب وخبّأت زوس لتحميه من الابتلاع! وبعد أن كبر أجبر والده علىٰ إرجاع (استفراغ) إخوته الذين ابتلعهم، وما أن فعل الأب ذلك حتىٰ اتحد الإخوة تحت قيادة زوس وانتصروا علىٰ الأب الذي اتحد بدوره مع آلهة آخرين.. ومن هنا أصبح زوس ملكاً عاماً علىٰ السماء ودانت له بقية الآلهة بالطاعة.. نعم.. نسيت أن أذكر أيضاً أنه كان شاذاً جنسيّاً!

هذا باختصار شديد هو زوس الذي لا يمكن لأحد أن يثبت عدم كونه خالق الكون المستحق للعبادة كما يقول الملحدون اليوم.

المشكلة أن الملحد يتعامىٰ عن التناقض الواضح بين موقفيه حينما يقول (محقاً): إنه في حال وجود خالق لهذا الكون فإنه يجب أن يكون عظيماً وقادراً وعالماً بكل شيء، ثم حينما تأتي جماعة من الناس بخرافات

وأساطير تقطر كذباً واختلاقـاً مـن أولهـا لآخرهـا يقـول الملحـد: لا يختلـف هذا عن هذا في شيء، كلاهما مزيف.

إن سبب هذا الموقف المريب من قبل الملاحدة يكمن في أنهـم عـادة مـا يستخدمون القـول الأول (إن الخـالق يجـب أن يكـون عظيمـاً) في مناقـشاتهم العلميـة والعقليـة. مثـل مناقـشة أصـل الكـون أو أصـل الكائنـات الحيـة أو تصميمها.

أما حينما يعـود الملحـد إلىٰ عنـاده الطبيعـي فإنـه يـضرب بكلامـه الأول عـرض الحـائط قـائلاً: لا يوجـد فـرق بـين عبـادة الإلـه الأعظـم وعبـادة قطعـة حجر، فكلاهما ادعاء لا صحة له وكلاهما يقوم فقط علىٰ عدم إمكانية نفيه.

ثالثـاً: يتفاخر البعض في الغرب بتصنيف أنفسهم علىٰ أنهم **(Deists)** أو الربوبيون وهم من يؤمنون بوجود مُسبب أول أوجد الكون ثم تركه بعد ذلـك يـدير نفـسه بنفـسه. فالـشخص الـذي يقـول: لا أومـن بإلـه "شخـصي" كإلـه التوحيديين ولكني أعتقد أنه يمكـن أن يكـون هنـاك موجـد أول للكـون؛ يـرىٰ نفسه أنه في غاية التعقل. إذ لا يرىٰ في نفسه تزمتـاً كالملحد الذي لا يجد إجابة علىٰ سؤال بداية الكون أو بداية الحياة ويصرّ مع ذلك علىٰ قولـه بعـدم وجـود الإله، ولا سذاجة كالمتدين الذي يخاطب السماء ظناً منه أن بها مَن يستجيب لدعواته، بل يرىٰ نفسه ممسكـاً بالعصا من المنتصف بحيث لم يمنعـه تـصلب الطرفين في موقفهما من إيجاد الحقيقة (كما يظن بالطبع).

طبعـاً هذه الصورة المبالغ في تجميلها ليست إلا وجهـاً آخر من وجـوه الإلحاد العابسة. إن الفرق بين الاثنين حقيقة هو أن الملحد يقول إن احتمالية

وجود الإله هي صفر أو تقترب من الصفر؛ في حين يقول الربوبي: بل هي أعلىٰ من ذلك بقليل؛ وذلك فقط لأننا بهذا الافتراض نجيب علىٰ أسئلة لا نجد لها جواباً.

* من الواضح أن ما يقال من أن الرب يكافئ الناس أو يعاقبهم في هذه الحياة فقط هو أمر ليس من الصحة في شيء. ولو أن للكون إلهاً علىٰ تلك الصفة لما وجبت طاعته علىٰ الإطلاق. لأن المقتضىٰ الأعظم لمسألة وجود الإله هو التحرز والاستعداد للبعث والحساب. ولا يوجد فرق كبير بين إله لن يبعث الناس ليحاسبهم وإله ليس له وجود. فالأولىٰ إذاً هو تجنب الأديان التي تُنكر البعث والحياة الآخرة، حيث أن هذه الأديان لا تختلف كثيراً عن الإلحاد. فإن كان الإنسان لن يُحاسب أبداً علىٰ أفعاله فلماذا يضيع وقته في اعتناق أي دين؟ أليس الأولىٰ به أن يعيش حياته بكل حرية وانحلال؟

* قد يحاج ربوبي هنا أن الأمر له علاقة بحقيقة الكون أكثر من علاقته بالدين الذي قد يختاره هذا الإنسان أو ذاك.. هل خلق خالق ما هذا الكون ثم تركه بعد ذلك ليدير نفسه بنفسه أم لا؟.. منطقياً لا يوجد تفسير مقنع للمعتقد الربوبي. إذ لماذا قد يقوم ذلك الخالق بالأمر اللامتناهي في الصعوبة وهو إيجاد الكون من العدم ووضع كل القوانين التي تحكمه، ثم لا يقوم بتدبير أموره والتحكم فيه بعد ذلك وهو الأمر الأيسر؟ ثم إنه في حال ثبوت وجود خالق للكون فإن الأصل هو أن الكون في قبضته وإخراج الأمر عن ذلك يتطلب دليلاً قوياً وواضحاً، وهو ما يتساهل - أو يفرّط - فيه الربوبيون كثيراً حسب ما أرىٰ.

رابعاً: يمكننا أن نشطب من حساباتنا الدين الذي يضع شروطاً معجزة للبشر. مثل ألا يُمكّن أحداً من الخارج من اعتناقه ويشترط أن يولد الإنسان فيه، أو أن يشترط أن يكون المنتسب من جنس أو عرق معين.

خامساً: عند البحث في أي دين يجب الرجوع إلىٰ المصادر الأصلية له. وعلىٰ الرغم من بساطة هذه القاعدة ووضوحها إلا أن قادة الإلحاد المعاصرين و كما يشرح كتاب "نظرة خلف الستار" عادة ما يأتون بالأعاجيب في تطبيقهم لها.

سادساً: يجب أن يعلم الباحث (الملحد) علم اليقين أنه لو بدأ بحثه وهو يعتقد أن جميع الأديان ليست إلا من صنع الإنسان وألا أساس لصحة أي منها؛ فإن تلك هي بالضبط النتيجة التي سينتهي إليها. ليس فقط لأن في رأيه الكثير من التعجرف والتكبر وعدم المنطقية - لأنه يزعم أنه يبحث عن أمر قرر سلفاً أنه غير موجود - بل لأن الخالق ﷻ لا يهدي مَن هو كاذب كفار. وهو سبحانه الذي قال أيضاً: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القلم: ٤٤).

سابعاً: مقارنة الأديان بعضها ببعض عادة ما تكون مفيدة. ويمكن أن يصل الإنسان إلىٰ الكثير من الحقائق، مثلاً بمقارنته انقطاع السند الهائل الذي في كتاب النصارىٰ والذي يصل إلىٰ ثلاثة قرون كاملة؛ يقارنه بصرامة شروط صحة السند والجرح والتعديل في الإسلام. وهو علم لم يصل إلىٰ مستواه في دقة النقل شيء آخر عبر التاريخ البشري علىٰ الرغم من أنه ليس متعلقاً بكتاب الله بل بأحاديث وسيرة الرسول، فكيف بالقرآن؟

ثامناً: على الإنسان أن يحذر كل الحذر من أن يضع شروطاً خاطئة للإيمان بوجود إله للكون. ونعلم أن من الناس مَن يحاول التحقق من وجود الإله بأن يخاطبه قائلاً: يا رب إن كنت موجوداً فافعل كذا أو كذا! وهذا أمر لم يتورع بعض قادة الإلحاد في العالم اليوم من القيام به وبعضهم من التصريح بالقيام به.

يحذر القرآن في أكثر من موضع من وضع شروط مماثلة، ففي سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٢١ - ٢٢). وفي سورة الإسراء وبعد أن تحدى رب العزة الخلائق جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٨٩ - ٩٣). أيضا يقول ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (البقرة: ١١٨ - ١١٩). فهي إذاً شروط لا يضعها إلا أصحاب الجحيم.

جاداً لا هازلاً

- تمكن قاتل مأجور في الولايات المتحدة الأمريكية من شخص ما، وقبل أن يقتل ضحيته قال له: سأعطيك نصف ساعة تصلي فيها لإلهك. فإن كان قادراً على إيقافي فليفعل وإلّا فستموت بعد ذلك مباشرة. وبالطبع فشلت "التجربة" وماتت الضحية.

وقد حكىٰ لنا ريتشارد دوكنز في وهم الإله عما سمّاه تجربة الدعاء العظمىٰ؛ والتي أخبرنا عنها بعدما أعطانا معلومات لا تقدر بثمن عن ابن عمة تشارلز داروين وهو شخص يدعىٰ فرانسيز غالتون (Francis Galton). حيث يقول دوكنز إن غالتون هو أول مَن حلل "بشكل علمي" إن كان لدعاء الناس أي فائدة. وكان من التجارب التي قام بها أن صلّىٰ ودعا لبعض الأراضي المنتقاة عشوائياً من أجل أن تنبت بشكل أسرع ولكنها لم تفعل!

أما عن ما قيل عنها تجربة الدعاء العظمىٰ، فيقول دوكنز إن فيزيائياً متديناً يدعىٰ راسل ستانارد (Russell Stannard) قام ببحث مُمول من مؤسسة تمبلتون للتحقق "بالتجارب العملية" إن كانت صحة المرضىٰ تتحسن بالصلوات وبالدعاء لهم. وقد ذكر بشيء من التفصيل الآلية التي تمت بها تلك (التجربة) والتي - وللغرابة - لم تثبت أي شيء أيضاً!

* خلاصة ما تعلمناه من قصة القاتل المأجور ومن ابن عمة داروين ومن تجربة الدعاء العظمىٰ؛ هي أنه لا يوجد ثمة إله لهذا الكون. لأنه لو كان موجوداً لأمكن إثبات وجوده عملياً بمجرد أن نهدد بقتل شخص ما؛ فإن لم يتدخل الرب لحمايته يَثبُت لدينا مباشرة عدم وجوده. فقد تمكنا من أن نقتل

الضحية فقط لعدم وجود الإله الرادع.

لعل أكبر تجربة إثبات علىٰ وجود الإله في نظر هذا النوع من العقليات هي أن نحاول قتل شخص في مكان كنا قد وضعنا فيه كاميرات تصوير؛ لأن منطقهم هو أن الإله سيتدخل حتماً إن كان له وجود، مما يمكّننا نحن من رصد وقياس القوة الإلهية.

ما الفائدة أصلاً من الحوار مع هؤلاء؟

- قبل الحديث عن الإسلام نفسه أود أن أوضح أنه من غير المقبول بتاتاً أن يظهر شخص ما في مناظرة علمية أو سياسية أو ثقافية أو حتىٰ رياضية أو فنية؛ ثم يصرّح أنه لا يعرف شيئاً عن موضوع المناظرة. ولو فعل ذلك لكان طرده أو إخراجه من المكان رداً غير مبالغ فيه. لكن علىٰ ما يبدو أن لتلك القاعدة استثناءً وحيداً، وهو أن يكون المناظر ملحداً أتىٰ ليتحدث عن الإسلام. فكما ذكرت سابقاً يعترف معظم مشاهير الإلحاد في العالم أن معرفتهم قليلة بالدين الإسلامي، ولكن ذلك لا يمنعهم من مناظرة بعض المسلمين لإقناعهم علىٰ ما يبدو بأن الدين الذي يجهلونه ليس صحيحاً!

* لماذا لا يرىٰ الملحد علىٰ سبيل المثال أنه من المعيب أن يعترف هيتشنز بأنه لم يدرس الإسلام متعللاً بأن ليس فيه ما يُدرس، ثم يذهب لاحقاً ليناظر البروفيسور طارق رمضان في ما إذا كان الإسلام دين سلام أم لا[1]؟

---

(1) Is Islam a religion of peace- Tariq Ramadan. vs Christopher Hitchens. https://www.youtube.com/watch?v=mMraxhd9Z9Q

وبالمناسبة؛ حينما يقول هيتشنز إنه لـم يـدرس الإسـلام فإنني أصـدقه تمامـاً لأسباب كثيرة، أحدها أنني استمعت إلىٰ بعض ما كـان يقولـه! فعلىٰ سبيل المثال قال هيتشنز أثناء مقابلـة في برنـامج اسـمه: الساعة (**The Hour**) علىٰ قناة (**CBC**) الكندية[1] إن في الإسلام عيباً هائلاً يتمثل في أن القيادة فيه تكـون بالوراثة علىٰ عكس البابوية، قائلاً إن الأمر في الإسلام كالملكية المطلقة، ثم أصدر حكمه أن الإسلام معرّض بسبب ذلك لكل النزوات المصاحبة لمبدأ توارث السلطة.. طبعاً لو كان هيتشنز يعرف عن الإسـلام شيئاً يسيراً لعرف أن توريث الحكم ليس أصلاً ولا حتىٰ فرعـاً فيه. ولـم يـرد فيه أمرٌ ولا نهي، وهو ما يدفعني لأن أتساءل: ما الذي يستند عليه هيتشنز وأشباهه في هجومهم علىٰ الإسلام؟ علىٰ حقائق أم علىٰ أحقاد وضغائن؟

* من الدلائل علىٰ جهل هيتشنز أيضاً قوله[2]: **إنك كي تصدق أن خالقاً هو الذي خلق الكون وكل الكائنات فإنه يتوجب عليك أن تصدق الآتي: أن ذلك الخالق خلق الكون أولاً، ثم بعد مضي مليارات السنين خلق الأرض، ثم بعد ذلك بملايين السنين خلق الكائنات الحية، ثم قبل مائة ألف عام تقريباً (أو ربع مليون عام كأقصىٰ تقدير) خلق البشر.. ثم ترك أولئك البشر يهيمون علىٰ وجوههم لعشرات الآلاف من السنين حتىٰ قرر قبل حوالي ثلاثة آلاف سنة أن يتدخل بأن يرسل الأنبياء والرسل.**

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾

(1) https://www.youtube.com/watch?v=Zrrk0CU4QIE

(2) https://www.youtube.com/watch?v=Xfi0gCATnc4

(فاطر: ٢٤). ويقول كذلك سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر: ٧٨)، ويقول أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ (الصافات: ٧١ - ٧٢). مرة أخرىٰ؛ لو علم هيتشنز وأمثاله من الإسلام أو حتىٰ باقي الديانات السماوية شيئاً لعلم أن موسىٰ أو حتىٰ إبراهيم عليهما السلام لم يكونا أول الرسل.

* لورانس كراوس اعترف أيضاً أنه لا يعرف إلّا القليل عن الإسلام ولكن ذلك لم يمنعه من مناظرة بعض المسلمين كما في مناظراته في أستراليا ومناظرته مع "حمزة تزورتزس" السابقة الذكر والتي بالمناسبة كان قد نقل فيها كلام هيتشنز السابق عن (البدء المتأخر في إرسال الرسل). ولعل عبارة (الجهل المركب) تبدو جذابة هنا.

* يُعتبر سام هاريس أفضل قليلا في معرفته بالإسلام من باقي مشاهير الإلحاد الحديث، ولكن وكما هو متوقع من أمثاله الحاقدين علىٰ الإسلام؛ لم يشكل ذلك أدنىٰ فرق في هجومه علىٰ الدين الإسلامي.. فهو نفس الهجوم المسعور المليء بالأكاذيب والذي ينطق بجهل مطبق وكراهية عمياء.. إذ ليس لدىٰ هاريس ما هو جديد، بل هي ذاتها الأسطوانة المشروخة وهي نفسها الشبهات القديمة: حدود الردة والزنىٰ والسرقة وقضية المرأة وتجريم الأفعال الجنسية الشاذة.. ثم هناك بالطبع آيات القتال.

كنت أتمنىٰ أن يتسع المقام لأن نرد علىٰ تلك الشبهات بشكل ربما يخرج قليلاً عن النمط التقليدي المعروف، ولكن للأسف ليس لذلك مجال هنا، فعسىٰ أن يتحقق ذلك في عمل آخر إن أراد المولىٰ ﷻ.

فماذا عن الإسلام؟

- يمكن القول ابتداءً وبشكل قاطع إنه لا يوجد دين عبر التاريخ البشري يعظّم إله الكون كما يفعل الإسلام ولا يوجد أتباع دين يبجّلون إلههم بقدر ما يفعل المسلمون. والسبب هو أنه لا يمكن لأحد أن يقدر الإله حق قدره أكثر من الإله نفسه. ولهذا دائمًا ما يسيء الإنسان إلىٰ خالقه وينتقص من عظمته حينما ينسب له أسماء وصفات لم يشرعها له بقصد تعظيمه. وكذلك هو أمر العبادات بالطبع، فالخالق لا ينبغي أن يُعبد إلّا بما شرع وأي تجاهل لهذه القاعدة البسيطة واللامتناهية في الأهمية ينتج عنه وخلال فترة قصيرة نتائج كارثية. فمَن يظن أن آلهته تتجسد في الفئران والحشرات لم يكن يقصد الإساءة إليها بداية ولكن أسلافه أخطؤوا في تجاهل أوامر الرب حينما نهىٰ عن تعظيمه بطرق لم يشرعها فكانت النتيجة الحتمية هي الوصول إلىٰ عبادة الحشرات والقوارض مع الاعتقاد أن الإله نفسه هو مَن أمر بذلك أو أراده.

* لا يوجد دين يقارب الإسلام صرامة في تعظيم الإله وفي التفريق بينه وبين مخلوقاته إلىٰ درجة يرىٰ فيها الكثير من غير المسلمين مبالغة شديدة. ذلك لأنه لا ينبغي للمسلم أن يتعبد الله ولا أن يمتدحه بما لم يشرعه الله له، حتىٰ ولو رأىٰ الخير في كل ما يقوله أو يفعله. وهذا ما يجعل الإسلام دين التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة. فحتىٰ المناطق التي ابتلي فيها بعض المسلمين بأمور بدعية أو حتىٰ شركية فإن أقل جهد دعوي يمكن أن يُعيد الناس فيها إلىٰ التوحيد الصحيح، وهو أمر صعب عند كثير من الديانات التي تعلقت قلوب معتنقيها بالصور والتماثيل.

كسل في التدليس!

في مقابلة أخرىٰ أجراها **دوكنز** مع الملحد **بيل ماهر** في برنامجه علىٰ قناة (**HBO**) تحدث **دوكنز** عن زيارته التي قام بها لمدرسة (مدني) الإسلامية الثانوية للبنات في ليستر أثناء تصويره حلقة من برنامجه (جذر الشرور كلها؟)[1].

قال[2] أن مَن تحدث إليهن من الطالبات في تلك المدرسة يعتقدن أن «**القرآن هو مصدر أعلىٰ للمعرفة العلمية من الأدلة العلمية**». لاحظ هنا: القرآن مقدم علىٰ الدليل العلمي. يعطي بعد ذلك مثالاً حيث يقول: «.. **قلن لي علىٰ سبيل المثال إن الماء المالح والماء العذب لا يمتزجان؛ السبب؟ لأن القرآن يقول ذلك!**».

الآن؛ مَن مِن الملحدين يمتلك الشجاعة الكافية ليقول صراحة إنه لا يمكن ولا بأي شكل من الأشكال أن يكون **دوكنز** قد أساء فهم الموضوع؟ وأنه كذب عامداً متعمداً علىٰ القرآن وعلىٰ الطالبات المسلمات اللاتي أعدن شرح المعجزة القرآنية له بعد أن سألهن متحاذقاً: **لا يختلط الماء المالح مع العذب في البحر؟**.. فهل اعتقد **دوكنز** حقّاً أن الطالبة المسلمة كانت تتفاخر بأن القرآن يقول إن الماء العذب لا يمكن أن يمتزج مع الماء المالح؟ هكذا علىٰ إطلاق الأمر؟! ولو سلمنا جدلاً أن ذلك ممكن، فهل كان من الممكن أن يظل سوء الفهم المنقطع النظير ذاك موجوداً بعد أن قالت له إحدىٰ

---

(1) The Root of All Evil – Richard Dawkins.

(2) https://www.youtube.com/watch?v=CxmRCV82ip4

الفتيات العبارة المسكتة لكل الملحدين: **(Natural barrier) أي الحاجز الطبيعي**؟ لماذا تفوه بذلك إذاً؟ ولماذا تمادىٰ في المقابلة مع **بيل ماهر** ومضىٰ في ذلك أكثر وأكمل يقول: «**لم تسعفني سرعة بديهتي أن ألتفت إلىٰ المعلمة الجالسة إلىٰ جانبي وأن أقول لها: هل لك في درس العلوم القادم أن تحضري بعض الماء المالح وبعض الماء العذب وأن تخلطيهما وتروا ما سيحدث؟**» وطبعاً هناك انطلق الجمهور الحاضر بالتصفيق إعجاباً!

ليس التضليل الوقح ولا عدم الأمانة هما أكثر ما لفت نظري في الأمر بكامله، بل اللافت هو أن سرعة بديهة **دوكنز** لم تسعفه لأن يقول: اخلطوهما لتروا بأنفسكم! وقياساً علىٰ ذلك لو ادّعىٰ أحدهم أمام **دوكنز** أنه يستطيع أن يطير مستخدماً يديه فقط؛ فإن الأمر سيتطلب شهوراً قبل أن يقول **دوكنز** متحسراً: ليتني طلبت منه القفز من أعلىٰ السطح ليثبت ذلك!

* يقولون إن من المعضلات توضيح الواضحات ولكنني سأحاول علىٰ أية حال.

يقول الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان: ٥٣).. ويقول: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩ - ٢٠). إن الآيتين في غاية الوضوح ولكن.. إذا قرر إنسان ما أن يموت ملحداً - مثل دوكنز- فلن يحتاج كي يردهما إلىٰ أكثر من عبارة: «**لنخلطهما معاً ونرَ**». وحتىٰ ذلك علىٰ ما يبدو يتطلب وقتاً من التفكير ليقال.

أمّا مَن كان عالماً بحق أو حتىٰ طالب علم، فإن نظرته للأمر تختلف

اختلافـًا جذريـًا. إذ ليست لديه ضغينة تحركه ولا جمهور يُضحكه.. لا شيء سوىٰ الحقيقة المجردة.

الحقيقة الواقعة هي أن مَن يدّعي مكذبوه أنه قد اختلق القرآن ﷺ؛ فإن الكتاب الذي جاء به يشير بشكل صريح وفي مواضع مختلفة إلىٰ وجود مناطق لا يمتزج فيها الماء العذب مع الماء المالح بسبب وجود حاجز طبيعي يفصل بينهما. وهناك آيات مثل التي في سورة الرحمن لا تحدد للمياه خواصَّ معينة (هذا عذب وهذا مالح).

المؤمن والمتشكك الباحث عن الحقيقة فقط هما مَن يتساءلان: ما الذي كان يتحدث عنه القرآن حينما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٥٣)..؟

الحقائق المجردة هي وجود هذه الآية ووجود التيارات المحيطية الحارة والباردة وغيرها من الكتل المائية المختلفة الخصائص في جسم مائي واحد، والتي لا يبقيها منفصلة إلّا خواصها الفيزيائية مثل ظاهرة خط نقصان الملوحة في علم المحيطات (**Halocline**) مثلا.

الأمر في غاية البساطة ولا يحتاج حتىٰ إلىٰ بحث ولا دراسة. لم يكن لأحد ولا لأعلم العلماء في ذلك الزمان ولا حتىٰ بعده بقرون، أن يعرف بوجود مناطق مشابهة علىٰ الكوكب. حتىٰ وإن ولد وعاش ومات في عرض البحر. فضلاً عن أن يعرف ذلك رجلٌ أمّي عاش في صحراء جزيرة العرب قبل أكثر من ١٤ قرنـًا من الزمان. وهو رجل ثبت أنه لم يركب البحر ولا لمرة في حياته الشريفة، ولم يثبت أنه رآه مجرد رؤية.

* كثير من آيات القرآن تتصف بالقوة والبساطة ذاتهما. ليست المشكلة أبداً في دلالة تلك الآيات ولا في قوتها كأدلة علىٰ وجود الخالق ﷻ وتعاليه عن بقية ما يُعبد من دونه، بل المشكلة دائمـًا وأبداً مع الملحدين هي أن نصف آية من هذا النوع تنسف في لحظة قصور الورق التي يشيدونها عبر سنوات. ولنا أن نتخيل أن ريتشارد دوكنز مثلاً يجلس ويناقش بموضوعية آيات الإعجاز العلمي مع عالم من علماء المسلمين المتخصصين.. ماذا يمكن أن يقدم أو يقول إذا كان أفضل ما أنجزه عقله بعد شهور من مواجهة طالبات في المرحلة الثانوية هو: **لنخلط ونرَ**؟!

يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: ٦ – ٧).

هل يؤمن الملحد مع نهاية هذا الجزء؟

إليكم إحدىٰ الطرق التي نثبت بها أن إله محمد ﷺ هو خالق الكون:

يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥). والسؤال الذي يجب طرحه بعد قوله سبحانه: ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ هو التالي: هل مَن يصّعد في السماء يضيق صدره ويتنفس بصعوبة؟ هل يؤدي الارتفاع عن سطح الأرض إلىٰ صعوبة في التنفس يا ملحدين؟! ماذا بقي بعد

هذا؟ لنعد الآن ونسأل السؤال القديم مجدداً: هل سيترك الملحدون إلحادهم إذا قابلهم أحد بالدليل؟.. بل: ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف: ٥٧).

* مَن لديه ذرّة صدق في بحثه فإن أمراً صغيراً قد يستوقفه لسنوات طويلة ولا يتجاوزه إلا بعد التحقق منه من جميع جوانبه. أما الملحد اليوم فإنه تمر عليه الآيات العظيمة والبراهين القاطعة فيردّها كليّة بأنصاف الحقائق إن استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، وإلّا فإن الاستهزاء وحده يكفي كما رأينا من فعل دوكنز. ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٤).

* الله تعالىٰ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣). ولكن يبدو أن السياسة الوحيدة المتبعة من قبل المتمردين علىٰ الحق الإلهي في دفع تلك الآيات العظيمة هي ذاتها سياسة قوم نوح قبل آلاف السنين: ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح: ٧).

- لقد وضع كثير من علماء الغرب طرقاً محددة يريدون من إله الكون أن يثبت وجوده بها. فالفيزيائي يريد دليلاً فيزيائيّاً، وعالم الفلك يريده من الفضاء الخارجي، وعالم الأحياء يريد دليلاً من أجساد الكائنات الحية وهلمّ جراً.. لكن ماذا إن أتىٰ الدليل واضحاً وقاطعاً لكن مختلفاً عمّا في ذهن ذلك العالِم؟

يقول الله سبحانه عن بعض السابقين: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء: ٨٩ - ٩٣).

لم يتغير منهاج الكفر عبر آلاف السنين كما نلاحظ. فكلٌّ لديه شروطه وطريقته التي لا يقبل غيرها. والله ﷻ يخبرنا في مواضع متفرقة من القرآن أن كثيراً من الكافرين لا يؤمنون وإن جاءهم من الدلائل ما طلبوا. يقول تعالىٰ في سورة البقرة في خبر بعض أهل الكتاب: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (البقرة: ٨٩ - ٩٠).

* الأمر الآخر الذي تحدثت عنه الآية السابقة هو أمر في غاية الأهمية لنفهم الطريقة التي يتعامل بها الملحدون مع النصوص الدينية. **ريتشارد دوكنز** مثلاً قال رأيه بصراحة حينما تحدث عن رواة العهد القديم من العبرانيين ووصفهم بأنهم كانوا جهّالاً وليسوا أهلاً لأن يُؤخذ منهم شيء في العصر الحديث. ورأيه في خاتم الأنبياء معروف أيضاً. وقد سئل **هيتشنز** في إحدىٰ المرات سؤالاً مباشراً عن **محمد** ﷺ وعن صدق نبوّته فأجاب (كعادته)

بكلام قبيح تقطر الكراهية والبغضاء منه. فهل يتصور عاقل بعد كل هذا أن يتخلىٰ العالِم الأوروبي في القرن الحادي والعشرين فجأة عن مكانته التي يتباهىٰ بها والتي يرىٰ أنها تغنيه عن وجود الخالق؟ ولأجل مَن؟ لأجل ألدّ الأعداء؟ لأجل مَن تقبع أمته (عليه الصلاة والسلام) اليوم في مؤخرة الركب معتمدة في أغلب حياتها علىٰ ذلك العالِم وعلىٰ أمثاله من الغربيين؟ كيف يكون هو رسول الخالق إلىٰ البشرية وهذا هو حال أمته التي آمنت به؟.. هل يريد الملاحدة الغربيون إقناعنا بأن كرههم لرسول الله وللإسلام وللمسلمين لم يكن له أدنىٰ تأثير في قبولهم أو ردّهم لما جاء به ذلك الدين؟ أم أن الحقيقة هي أن كره الإسلام ورسوله يجعل كل ما أتىٰ به الإسلام باطلاً ولو كان حقـاً؟ أليس واضحـاً اليوم أن الملاحدة الغربيين تحرروا من كل تعاليم وتوجيهات رجال الدين النصارىٰ فيما عدا العداوة الخاصة والمطلقة للإسلام؟

* يخبرنا الله تعالىٰ أن من الجهلة الحفاة العراة الوثنيين الذين عاشوا في عصر نزول الوحي مَن استهزأ **بمحمد** ﷺ معتقداً أنه خير منه: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴾ (الفرقان: ٤١). إذاً ليس ما يفعله **دوكنز** ومَن هم علىٰ شاكلته بالشيء الجديد. ولكن النقطة المحورية هنا هي أن الكفر لا يحتاج لأسباب ومقومات من حُجج وغير ذلك، فالتكبر وحده لطالما أدّىٰ الغرض.

أما مَن يتساءل عن واقع المسلمين اليوم في مؤخرة الركب وهم أتباع آخر الأنبياء فالله يقول: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم ﴾ (محمد: ٣٨).

هاريس يسأل ويجيب

- فيما يُعد لقاء السحاب عند الملحدين[1]؛ التقىٰ في العام ٢٠٠٧م كلّ من: ريتشارد دوكنز، كريستوفر هيتشنز، سام هاريس ودانييل دينيت ليناقشوا الإيمان والإلحاد.

حيث سأل هاريس البقية إن كانوا قد تلقوا في حواراتهم أو عملهم مع ناقديهم سؤالاً أو واجهوا حُجة غير متوقعة ولم يجدوا لها جواباً مباشراً. الموقف الذي ذكره هاريس نفسه كان أن أحدهم ذات مرة قال له: إن السبب في أن المسلمين لا يُنظر إليهم كمتطرفين هنا في الولايات المتحدة بالقدر الذي هو في أوروبا الغربية، يعود في معظمه إلىٰ أننا نوقر ونحترم الإيمان كثيراً في حديثنا؛ مما لم يدفع بالمجتمع المسلم إلىٰ الانعزال ومعاناة الظلم كما في دول أوروبا الغربية.. ثم قال هاريس: **«وأنا لا أعلم إن كان ذلك صحيحاً حقاً، ولكنه في حال كان صحيحاً فإنه استوقفني لأفكر للحظة»**.

هذا أقوىٰ ما واجهه سام هاريس من الحُجج! وبإضافة سؤال كريستوفر هيتشنز الذي كان يتفاخر به دوماً قائلاً إنه يُحرج المؤمنين: ما هو النص الديني الذي لا يمكن أن يكون صادراً من بشر، بإضافة هذا إلىٰ كلام هاريس نتيقن بشكل كلّي أن الحوار بيننا كمسلمين وبين متزعمي الإلحاد الجديد من الغربيين أصبح عقيماً.

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=n7IHU28aR2E

بأي عين ننظر؟

- غريبة هي الطريقة التي يستخدمها الملحدون العرب علىٰ وجه الخصوص في التعاطي مع الآيات الكونية والإعجازية في القرآن الكريم. فهم عادة ما يهرعون إلىٰ أقوال علماء السلف وإلىٰ كتب التفسير الأولىٰ لإيجاد معاني تلك الآيات. السبب ليس بالطبع اعتقادهم بسعة علم أولئك الأفاضل من السابقين؛ بل إنهم يفعلون ذلك حتىٰ يهربوا من الأمور الخطيرة التي تقتضيها صحة تلك المعجزات. أذكر علىٰ سبيل المثال قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧). إذ لا يختلف اثنان من الملحدين علىٰ وجوب الأخذ بأقوال ابن كثير والطبري والقرطبي وغيرهم من العلماء في تفسير هذه الآية لأجل أن يصلوا إلىٰ أن المقصود بكلمة موسعون هو قادرون، أو ربما الأخذ ببعض الأقوال الأخرىٰ، المهم أن لا أحد منهم يقبل مجرد التفكير في حمل الآية علىٰ المعنىٰ الذي يشير إلىٰ توسيع الكون؛ والسبب في ذلك واضح.

إن لفظ الكلمة (موسعون) يحتمل جداً أن يكون المقصود به هو اتساع الكون، ولكن الملحدين يصممون في هذه النقطة بالذات علىٰ الأخذ بعموم أقوال أولئك الأكابر ثم يعودون لاحقـاً وحسب الحاجة ليضربوا بأقوالهم عرض الحائط. ومرة أخرىٰ نحن لا نجزم بمعنىٰ الآية ولكننا نتعجب فقط من نهج الملحدين.

- هنا لا أجد طريقة أوضح مما سيأتي للإجابة علىٰ السؤال القديم: لماذا لم يستخدم القرآن ألفاظـاً أكثر وضوحا وصراحة في إخباره عن الآيات الكونية..

لو أن في القرآن الكريم عبارة تقول علىٰ سبيل المثال: **وهو الذي كوّر الأرض**.. أي أن الله ﷻ هو الذي أعطىٰ الأرض شكلها الكروي؛ لكان علماء التفسير الأوائل قد أوّلوا تلك العبارة إلىٰ معنىٰ آخر. كانوا سيقولون مثلاً إن المقصود ليس شكل الأرض بل المقصود هو تكوير الليل علىٰ النهار والنهار علىٰ الليل، أي تعاقبهما. فيصبح المعنىٰ: وهو الذي كوّر الليل علىٰ النهار في الأرض والنهار علىٰ الليل.

بما أن السابقين لم يعرفوا شكل الأرض الحقيقي فإن معنىٰ الآية المفترضة كان سيخفىٰ عليهم حتماً، مع أنها تعطي معلومة مباشِرة وفي غاية الصراحة والوضوح.

* قد يبرز هنا سؤال يردده الملاحدة كثيراً (**بمَن فيهم سام هاريس**) وهو: لماذا لم يكن القرآن أكثر وضوحاً في مسألة الإخبار بالحقائق العلمية؟ لماذا لم يذكر كروية الأرض صراحة أو يصف قانون الجاذبية وصفاً دقيقاً أو ما شابه ذلك؟

والحقيقة أن مَن يسأل أسئلة مثل هذه يتغافل عن أن الناس كانوا لا يزالون يُحرقون أحياء في أوروبا وأجزاء أخرىٰ من العالم وإلىٰ قرابة الألف عام بعد نزول القرآن إذا ما قالوا بكروية الأرض مثلاً أو بلامركزيتها. وبما أن القرآن لم ينزل فقط لإقناع ملحدي القرن الحادي والعشرين، فإنه كان لزاماً أن يأتي خاتم الكتب السماوية متوافقاً ومناسباً للعصر الذي نزل فيه، وكذلك يبقىٰ مناسباً لكل عصر بعده وإلىٰ أن تقوم الساعة. ولنا أن نتصور وقع مثل تلك

الحقائق علىٰ مَن عاشوا في تلك الحقبة، فهل كان الناس مثلاً سيدخلون في دين الله إن قال لهم النبي ﷺ صراحة أن الأرض كروية؟ أأنتم أعلم أم الله؟!

- لنحاول هنا أن نرىٰ الفرق بين كلام البشر وبين وحي السماء.

في إنجيليِّ متّىٰ ولوقا قصة للسيد المسيح مع الشيطان؛ وهي تقول حسب رواية متّىٰ (الإصحاح ٤: ٨- ١١):

«**ثم أخذه أيضاً إبليس إلىٰ جبل عال جدّاً، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان! لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه**».

يا لها من قصة.. لو غضضنا الطرف عن ذلك الإله الذي يحاول الشيطان غوايته فإننا سنجد أن إبليس أخذه إلىٰ «**جبل عال جداً**» ليريه العالم بأكمله!.. نقول مباشرة وباختصار: كاتب تلك القصة لم يكن يعرف الشكل الحقيقي للأرض.

الآن تأمل كلام مَن لا ينطق عن الهوىٰ صلوات ربي وسلامه عليه في حديث ثوبان حينما قال: «**إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوىٰ لي منها**»[1]. ولم يقل إنه ارتفع عن الأرض كي يراها بأكملها بل أخبر أن ربه ﷻ «**قد زواها له**».. فهل لاحظتم الفرق؟

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩).

هذا دين آخر رسل السماء

- أود وقد اقتربنا من النهاية أن أضيف أن الله ﷻ أرسل آخر رسله إلىٰ الأرض ﷺ وأخبره بأمور كثيرة لم يكن لأحد أن يعرفها، ذلك حتىٰ نتيقن نحن أنه رسول الله إلينا. ثم أمر الله تعالىٰ زوجات النبي بهذا الأمر: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٣٤). وقد أمر هو صلوات الله وسلامه عليه صحابته أن يصلوا كما رأوه يصلي وأن يأخذوا عنه مناسكهم، وهو مَن قال: «**بلغوا عني ولو آية**»[1]. وقد كانت النتيجة المباشرة لما سبق نتيجة فشلت جميع أديان الأرض في تحقيقها، وهي أن أصبح الرسول نفسه هو صاحب التشريع الذي يؤخذ الدين عنه ولا أحد معه. فأينما ذهب صلوات ربي وسلامه عليه كان محط الأسماع والأنظار ليس فقط للتعلم الشخصي؛ بل كان الناس يحفظون كل ما يقوله ويفعله عن ظهر قلب حتىٰ ينقلوا ذلك إلىٰ غيرهم دون أي احتكار كما حدث ويحدث في كثير من الديانات الأخرىٰ؛ حيث لا يحق إلّا لعدد قليل من الناس أن يرافقوا المؤسس سواء كان إلهـًا أو نبيًّا أو معلمـًا؛ فإذا مات تعاظمت منزلة أولئك المرافقين الذين احتكروا وحدهم علم سيدهم، ويصبح من العسير علىٰ أحدهم أن يقاوم إغراء الإضافة والتبديل أو الحذف والتعديل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٤).

أما عند المسلمين؛ فانتفاء ذلك كله كان سبباً رئيساً في حفظ رسالة وتعاليم آخر الرسل عليه الصلاة والسلام، وبدرجة من الدقة لا يمكن أن نجد لها مثيلاً عبر التاريخ.

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص: **أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ ﴾** (إبراهيم:٣٦)، **وقال عيسىٰ ﷺ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾** (المائدة:١١٨) **فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكىٰ..**

فقال الله ﷻ: يا جبريل اذهب إلىٰ محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل ﷺ فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلىٰ محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك[1].

- وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله يقول: «**إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزهم عن النار وهم يقتحمون فيها**»[2]. وفي رواية عن جابر قال؛ قال رسول الله: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، مثلي ومثل ما بعثني الله... (٦١١٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، مثلي كمثل رجل استوقد نارا... (٤٢٣٦).

لهذا هو نبي الرحمة، ولهذا نحبه عليه الصلاة والسلام أكثر من أنفسنا وأبنائنا.

* * *

الخاتمة

- النصيحة التالية أهديها في أواخر هذا العمل لكل متشكك اقتنع بالعودة ولكنه لا يمتلك القوة أو الشجاعة لمواجهة رفقاء الإلحاد ولو عبر الإنترنت:

إن اضطرك الأمر فقم ببيع منزلك، اترك عملك وغادر بلدك متوجهاً إلىٰ أبعد جزيرة يمكنك أن تجدها علىٰ الخريطة، وعش هناك حياة بدائية حتىٰ ينقضي عمرك إن كان ذلك هو سبيلك الوحيد لأن تموت وربك عنك راضٍ غير غضبان. ذلك لأنك قد تتأثر بسخرية الملحدين إلىٰ درجة يفلحون معها في جرّك إلىٰ المصير الذي ينتظرهم، ولك أن تتصور الإله الذي خلق الأرض وخلق أجراماً تكبرها بمليارات المرات يتوعد بشراً بالعذاب فيقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر: ٣٦ - ٣٧). تذكر دائماً أن الله ﷻ لا يُري الناس الآيات ويعطيهم الأدلة دون حساب. فقد استجاب سبحانه لطلب بني إسرائيل من نبيهم عيسىٰ عليه السلام أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء، ولكن

تلك الاستجابة أتت مع تعقيب يمكن أن يُقال عنه إنه بلغ الحد الأقصىٰ من التهديد والوعيد: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة: ١١٥). ذلك أنه كلما زادت قوة وصراحة الأدلة؛ زاد مقدار التكبر اللازم للكفر بها، فتزيد تبعـًا لهذا شدة العقوبة إلىٰ أن تصل إلىٰ ذلك الحد المروّع.

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٤). قال: **«يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئـًا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئـًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئـًا، ويا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنكِ من الله شيئـًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنك من الله شيئـًا»**[1].

لهذا كانت دعوة آلاف الأنبياء ومئات الرسل، ولهذا جاهد رسول الله كل أنواع الجهاد وبكل ما أوتي من قوة. ولهذا اتبع الصحابة سُنة آخر رسل السماء وما حادوا عنها قيد شعرة، ولهذا فتح المسلمون البلاد والأمصار، ولهذا يفعل المسلمون الطاعات ويجتنبون النواهي.. ولأجل هذا كُتب هذا الكتاب..

إن تجنّب غضب الخالق جل وعلا ليس بالأمر الصعب، بل إنه ﷻ هو مَن يغفر الذنوب جميعـًا ولو كانت مثل زبد البحر شريطة أن يَسلم الإيمان. لكن واجه رسول الله ﷺ الصعوبات في إقناع بعض المشركين والمنافقين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (٢٦٠٢).

وكذلك بعض أهل الكتاب بخسران الصفقة التي تقوم علىٰ بيع الآخرة من أجل مكاسب دنيوية محدودة، لأن ذلك يعني استحقاق عذاب يصفه الخالق بالعذاب الأكبر.

أما الملحد اليوم فإنا نراه وهو يبيع آخرته دون ثمن علىٰ الإطلاق ما عدا نشوة الكِبر وليس لذلك علاج البتة، يقول سيد البشر ﷺ في حديث أبي هريرة: «**بادروا بالأعمال فتناً كقِطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[1]. ولذلك كان من عدل الخالق أن يجعل المُستكبر عن عبادته وقوداً لنار جهنم وحطباً لها؛ ينتزعه الموت من الدنيا ليجد أن بيته الأبدي ما هو إلا نار يأكل بعضها بعضاً من فرط الحرّ فيا لسوء المُستقر.

نسأل الله تعالىٰ في الختام أن يكفي المتشكك شرّ الملحد أولاً وشرّ الوساوس ثانياً وأن يريه الحق حقاً ويرزقه اتباعه.

اللهم ارزقنا الثبات علىٰ دينك، والموت علىٰ سنة نبيك، واجمعنا به في دار القرار، مع المتقين الأبرار من الآل والصحب والتابعين الأخيار.

اللهم آمين.

* * *

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث علىٰ المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨).